وطن

مؤمنة محمود

وطن

رواية

مؤمنة محمود

الإهداء

إلى من كانت لي أمّاً وأختاً

زرعت فيّ حب الأدب منذ الصغر

ملهمتي وناقدتي في كلّ ما أكتب

وكان لها الفضل الأكبر في كتابة رواياتي إذ تشجعني على الدوام.

بابتسامة طيبة كقلبها الطيّب تنتقد ما كتبه قلمي

وتشرع في تحسين مستواي

إلى أحلام الأخت والصديقة والأم

أهديها روايتي المتواضعة

كلمة شكر

لكل من حافظ على نقائه في زمن ضج بالفتن...

ولكل إنسان حافظ على ضميره في زمن بات الضمير شيئاً نادراً...

ولكل من كان قدوة لغيره في السر والعلن...

ولكل إنسان صادق حافظ على مبادئه في زمن كثرت فيه الأموال والفواحش.

شكراً لكل نقيّ محبّ لوطنه.

قال الله تعالى في كتابه العزيز:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون﴾

البقرة (١١)

ألهذه الدرجة أصبح وطننا شيئاً مخيفاً للغاية

لدرجة أنهم يهددونا بالترحيل إليه.

(مجهول)

في الحياة درب واحد طويلٌ جدّاً وصعب جدّا.

هذا الدرب لا يستطيع أحد غيرك السير فيه.

كتبه القدر لك وفيه خلاصك.

إلى أين يمضي بك؟

لا تعرف؛ وكذلك الأمر بالنسبة لغيرك.

فلا أحد يعرف دربه إلى أين يفضي؟

لا تسأل كي لا تتوه أكثر.

أنجز مهمتك بهدوء وامض إلى نهايته.

لعلّك تجد في نهايته شيئاً جميلاً ينتظرك.

ظهرت على شاشة التلفاز كلمة _ النهاية _

- أقفل قيس التلفاز ونظر إلى أولاده الثلاثة وابتسم قائلاً لهم: هذا المسلسل يعرض منذ أكثر من عشرين عاماً، ما زلت إلى الآن أتعذّب لعذاب سنا وأتمنى نهاية أخرى له.

سأله أصغر أبنائه:

- من تكون داعش يا أبي؟ وهل هي كانت بالفعل في زمان ما؟ كيف استطاع الناس النجاة من بطشها؟

وقف قيس وحمل رواية من على الرف نفض الغبار الكثيف عنها، وقرأ اسم (وطن) بدأ يتلو عليهم حكاية أبطالٍ عاشوا فيها ولم يرأف لحالهم أحد.

* * * * * *

سنا

تستمر الصراعات في

الوطن الكبير بلا انتهاء، وحده الوطن الصغير من يعاني ويتألم أكثر، فإن كنت مارّاً بالصدفة من هناك في الساحة الكبيرة فلا تسأل عن الأجساد المتدلية من السلاسل الحديدية المعلّقة والخالية من رؤوس أصحابها، ستقف حائراً وفي قلبك لوعةً وأسى تبحث بين الرؤوس عن جسدٍ لحبيب كان لك. تبكيه بقلبك دون عينيك، تنتحب بصمت مقتله ظلماً، لأن البكاء هناك محرّماً وجرماً كبيراً تفعله. تمضي باحثاً عن خيطٍ رفيع يوصلك إلى درب السلام فتتراءى لك المدينة وهي تضجّ بالخطايا المحرّمة. آثامهم معلّقة على أكتافهم، إجرامهم دليل جرائمهم، وحشيتهم تهلل لهمجيتهم، ذنبهم كبير وخطأهم

أكبر، نسوا وتناسوا بأنّهم ليسوا آلهة وليس لهم الحق بإدانة أيّ مخطئ، فماذا لو كانوا هم المخطئين؟ من سيدينهم؟

(سنا)

تباً لهذه الفوضى من

حولي، بالكاد أرى نفسي بين كومة الكتب هذه، أعدت ترتيبها مئة مرّة وفي كلّ مرّة تزداد الكتب عن الحدّ فلا أجد لها متّسعاً بين الرفوف. وضعت ما بقي من الكتب على الطاولة بعد أن أرهقت نفسي وتعبت يداي من حملهم. فتحت الدرج الكبير في الخزانة وسحبت منها أربعة مخطوطات لأربعة روايات خطّها قلمي وشاركه فيها عقلي وقلبي، قبّلتها الواحدة تلو الأخرى، وضممتهم إلى قلبي وكأنني استنشق من جديد عطر حروفي فيهن.

عادت بي الذاكرة إلى الوراء قبل أربع سنين حين كتبت روايتي الأولى – رياح الصيف – حاولت قتل نفسي حينها

بتناول كميات كبيرة من دواء أمي، اتهمني وقتها الجميع بالجنون، أيعقل رواية تكتبيها تفعل بك كلّ هذا؟ هذا السؤال كانوا يسألوني إياه في كل مرّة يلتقوني بها. وكنت ألوذ بالصمت فوحده قلبي يعرف مأساة ما يبدع.

لم يفهموا بعد بأنني كاتبة وبيني وبين شخصيات رواياتي صداقة سرمديّة، انتماء بلا حدود، عشق لا ينتهي، كيف لشخص تعشقه أنت تكتبه وتحييه أن يتحكّم بجميع مشاعرك؟ كما تتحكّم أنت بجميع أحداث حياته، كيف لدوره أن ينتهي ببساطة ومن ثم تكتب "أنت" بعد نفاد مشاعرك (تمت) في نهاية آخر سطر من الكتاب؟ أتمّ الكتاب حكايته ولم يتمّ عندي، فمازالت المشاعر تتصارع في أعماق أعماقي.

أفتّش عن الشخصيات في خبايا نفسي فألمحهم يلهون ويعبثون بقلبي وحين أعود إلى الورق حيث منبتهم لا أراهم، لا أرى لوجودهم حرف واحد يدلّني عليهم، أتساءل: أيعقل أنهم

قد تخلّوا عني وبدؤوا بممارسة حياتهم المستقلة ؟ لكني أنا من رسمتهم وتفننّت فيهم فتمرّدوا علي؟ لذلك تركتهم يكملون أدوارهم بعيداً عن قلمي، أحببتهم ولا أنكر ذلك فأنا من صنعتهم ورسمت لهم دروبهم، اخترت قدرهم بنفسي وأودعت الحب في أفئدتهم، أنجيتهم من الغرق، وعزفت لهم في الغابات المظلمة أغاني الأمل والفرح، فكيف لي أن أنسى من وهبتهم حياتي وعشت معهم بضع سنين لكنها كانت كثيرة بالنسبة لي؟ (رياح الصيف، ظل عابر، لأنني أنثى، هيام وانتقام) أرجعتهم إلى الدرج وأغلقته على بناتي الأربعة وصديقاتي في وقت وحدتي وملاذي من واقع لا أرغبه. ملأت بهم أوقات فراغي وكبرت بإبداعي لهم، كانوا خير عونٍ لي في أوقات الشدّة. حلمي لم يتحقق بعد ولم أقترب منه خطوة واحدة. ولا أعرف متى يبدأ؟

انتهيت من ترتيب الكتب أخيراً، لن أعيد ترتيبها مهما حدث. قفزت على سريري وحملت هاتفي المحمول لعلي أغوص في عالمي الافتراضي الوهمي، بدأت أتصفح برنامج "الفيس بوك"، صفحتي على هذا البرنامج قاربت من الـ٥٠٠٠ معجب ونصف، فيها من تلامس قلبه كلماتي ويبتسمون لها، بعض التعليقات تخبرني أنني ألامس وجعها وأتحدّث بلسانها ومنهم من يتمنى لي حياة ملؤها السعادة والهناء، يظنّون بأنني أعاني ولكنهم لا يعلمون أنّ الكاتب يتكلّم بكل الأصوات ويتحدّث عن كل المشاعر سواء أمرّ بها أم لا، كلّنا بشر وقلوبنا تنبض بكافة المشاعر فنستطيع التحدّث عن الخيانة دون أن يخوننا، لنحب الحياة علينا أنّ نعبّر عن هذا الحب بكلّ لغات العالم فلا يعني ذلك أننا جميعاً غرقى في محيط الغرام والهيام.

مللتُ هذا الروتين اليومي الذي أصابني بإحباط شديد مما دفعني إلى اكتئاب أفضى بي إلى النوم في معظم الأوقات، حتى رسائلي الإلكترونية لا تحمل شيئاً مهماً في محتواها.

ها هي والدتي تناديني لأعدّ الطعام معها، مع العلم أنّها تدرك مسبقاً بأن جميع ما تضعه على المائدة لا يجلب لي السعادة، لكنني سأقوم مكرهة ككل يوم لأساعدها فأجاملها بكلمات لطيفة علّها تكفّ عن زجرها لي في أغلب الأوقات، آكل معها مرغمة وعقلي شارد في كلّ الأمور فهذا البيت وحده من يجلب لي الكآبة. تتهمني كالعادة بأنني مهملة في عاداتي اليومية ولا أعرف قط كيف أستسيغ طعامها. أبتسم في وجهها رغماً عني وأرتّب المائدة، أحمل الصحون لأنظّفها وأغرق في المطبخ لساعات كي أهرب من ثرثرتها، أبدأ هنا

في نسج أحداث رواياتي من خلف صنبور الماء وأمام جبلٍ من الأطباق المتّسخة.

تجلس والدتي أمام التلفاز وتفتحه على الأخبار، تناديني كي أفهم ما يقوله المذيع، آتي إليها أقف وراءها وأنا شاردة الذهن أفكّر في طريقة أنقذ فيها بطلي من فك تمساح ضخم في غابات الأمازون.

تناديني بصوت أعلى ثم أعلى دون أن تنتبه أنّي خلفها، أربّت على كتفيها فتطمئنّ بأنني قد لبيت نداءها، ثم تبدأ جملة أسئلة لا تنتهي إلا بانتهاء الأخبار وأجيبها ببرودي المعتاد وثقافتي الضحلة. ضجيج أمّي ومناداتها لي يوميّاً يخيّم على مجرى الأحداث في خيالي، تتشابك القصص ببعضها. أبقى واقفة في مكاني أشاهد الحرب المشتعلة والأدخنة المتصاعدة من خلف شاشة متوسطة، أتأمّل صراخ النسوة، وبكاء الأطفال، والنيران المتصاعدة من أبنية تحترق،

وصفير سيارات الإسعاف يطغى على كلّ صوت هناك. وكأنّ الحرب الدائرة هناك لا تعني لي شيئاً وكأنّها حرب قادمة من ماضٍ بعيد، يظهر على الشاشة مشفى صغير وبداخله عشرات الجرحى، أطفال ينامون فوق الأسرّة يبكون ويصرخون، طاقم الإسعاف يقفز هنا وهناك، يحاول أن يلبّي احتياجات الجرحى جميعهم.

يظهر على الشاشة فجأة شريط أسود وخط أبيض (داعش "منظمة إرهابية" تتبنّى الهجوم الانتحاري الذي أودى بالعشرات بين قتلى وجرحى). أجلس بجانب أمي وأشاهدها كيف تتأمّل تلك الجثث المبتورة الأطراف باستمتاع واضح وهي تتناول قطع البطيخ الصغيرة، أتأمّل قسوة قلبها وهشاشة قلبي، أعود إلى غرفتي الصغيرة مبتورة الفكر، علقت تلك الأحداث في ذهني رافضة الرحيل قبل أن يصنع ذهني أحداثاً جديدة تليق بمقامها.

تعاود أمّي مناداتي كي أشاهد معها المسلسل التلفزيوني الجديد، أرفض دعوتها بتجهم فأمّي دائماً تهاجم وحدتي بنداءاتها الكثيرة. وكلّها نداءات مصدرها وحدة أمي وخوفها الدائم عليّ.

أخرج في اليوم التالي على عجلٍ أبحث عن عملٍ يساعدني في العيش، ترفض أمّي ذلك رفضاً قاطعاً وتطلب منّي أن أبقى بجوارها وألا أفارقها، فهي تخشى أن تراني يوماً على التلفاز خبراً في نشرة أخبار التاسعة. أنفجر في وجهها رغماً عني فالأزمة دخلت عامها العاشر ولا يعقل أن أسجن نفسي بإرادتي إلى أن تنتهي، أخرج من البيت مسرعة أركض على الدرج وصراخ أمّي يصل إلى الشارع، أتجاهل صراخها وأمضي بسرعة قبل بدء تساقط القذائف.

الأخبار ذاتها كلّ يوم، حفظتها غيباً وعن ظهر قلب، دمشق وباقي المدن السوريّة لم تعد كما كانت من قبل،

تغيّرت كثيراً ولبست ثياب الحداد، أضحت أصوات الانفجارات جدّ مألوفة، الحزن يخيّم على قاطنيها، والألم يعتصر بيوتها، ياسمينها يبكي أزقّتها، وأزقّتها تنتحب قلعتها، الليالي الظلماء غطّت أزقتها وبات الأنين والعنين في كل شبرٍ فيها ينادي للأمان.

تتصل أمّي بي على الفور كي تطمئنّ أنني ما زلت على قيد الحياة أحيا، أو الأفضل ما زلت على قيد الألم أتنفّس. تتصل أمّي كل خمس دقائق وتطلب مني إبقاءها على الهاتف لحين عودتي إلى البيت، تأمرني ألّا أغلق الهاتف في وجهها كي يطمئنّ قلبها. يتسارع نبض قلبي مع كلّ قذيفة تخطئ هدفها وتصيب الشارع المجاور، أقف في أوّل مدخل بناء أصل إليه والعرق يتصبب مني، وقدماي بالكاد تحملاني. أبتلع لعابي بصعوبة وأخبر أمّي أنني اقتربت من البيت وأغلق الهاتف كي لا يوتّرني ويربكني نحيبها،

أتذكر خوفها الدائم عليّ وهي تردد على الدوام بأننا أناس بسطاء ليس هناك من يحمينا سوى الله، الموت مخيف حين يأخذ ما تملك ولا تملك القدرة على استرداده. أبتهل إلى الله كي أعود إليها سالمة وألّا تتفوه بحرفٍ واحد حين أصل إلى البيت.

أقف ساعات في الحرِّ أنتظر مقعداً صغيراً في الحافلة والازدحام في ازدياد شديد، الكلّ يريد الوصول إلى مسكنه قبل أن تعالجه قذيفة أخرى أو انفجار لا يعرف الرحمة. تمر الحافلات مسرعة دون أن تقف لأحد، أصبّ جمّ غضبي على الحصا أمامي أركلها بغيظ وحنق، وضميري يؤنّبني على كذبي على والدتي، ستقلق أكثر لأنني لم أصل بعد في الموعد الذي أعطيتها إياه، تأتي حافلة فارغة أركض إليها مع الراكضين وأصعد برشاقة فأجلس في المقعد الأخير، سعيدة بهذا الإنجاز العظيم، أعترف الآن بغياب والدتي عن تفكيري

أن الخروج من البيت بات أمراً لا يطاق والمكوث في البيت بات أمراً مملّاً، أصل إلى البيت خائرة القوى، أضع المفتاح في مكانه فتفتح الباب أمّي بسرعة عجيبة تضمّني وتقبّلني وتبكي سعادة لأنني عدت إليها كما ذهبت. أهرب منها وأرتمي على الأريكة في الصالة، تهرع أمي إلى المطبخ لتعود بكأس من الماء البارد وهي تحمد الله على عودتي إلى حضنها تارة، وتارة أخرى تعنّفني لخروجي من البيت كلّ يومٍ دونما سبب يذكر، ألا تدرين يا أمّي أن الجوع كافر كما كنت تخبريني كل ليلة قبل النوم، والنقود التي أبقاها والدي لنا قد شارفت على النفاد، والدي الذي كان قبل سنة منارة الحي ونور بيتنا، ولكننا الآن لا نعرف عنه شيئاً، أمات بذاك الانفجار العنيف؟ أم اختطف؟ لا أحد يعلم شيئاً عن تلك الحادثة المخيفة، ولا معلومات صحيحة وردتنا إلى الآن. وما زلنا إلى الآن نزوّد أنفسنا من تلك الأوراق النقدية، وأنا ما

زلت أيضاً إلى الآن أبحث عن عمل استرزق منه ولكن هيهات أن أجد في دولة الحرب عملاً يدرّ عليّ مالاً دون أن يخسرني شرفي أهرب من أسئلة أمّي الكثيرة إلى مملكتي الصغيرة، صدر أمّي ملاذي من الحرب الطاحنة، وغرفتي ملاذي من مخاوف أمّي الدائمة عليّ.

أجلس على الطاولة الخشبية وابدأ بكتابة ما يجري في الساحة، وأنتقد الأحداث بلسان فتاة ملّت من الحروب واشتاقت للأمان. تعود أمي من جديد لندائي على كلّ مشهد في الأخبار تشاهده وتعاتبني على كلّ خبر يظهر أمامها، وكأنني أنا المعدّة لتلك الأخبار، تقول للمرة الألف بأن لولا لطف الله بي لكنت الآن معهم في عداد الموتى أو الجرحى، وهل وجودنا في البيت آمن يا أمي؟ ألا يمكن أن تصيبنا قذيفة ونحن في البيت نيام. حينها سيكون الشارع الذي

تخشينه هو الأمان. أسمع صيحاتها القادمة من الصالة وأتمنّى انتهاء الحرب سريعاً لعلّ والدتي تتركني أنعم بالسلام.

أكتب كل ما أشعر به على "حائطي الفيسبوكي"، أنتظر تعليقات معجبيّ بفارغ الصبر، الكلّ يصلّي لسوريا ويتمنّى لها السلام، يدعون خالقهم أن يعيد الأمن والأمان إليها، تنسكب من عيني بضع قطرات من العبرات على وطن يحتضر بوجودنا، يؤلمنا ألمه وتبكينا تأوهاته. أبكي قهراً شوارعه التي ما عادت تعرفنا، حاراته الصغيرة المغلقة بالحواجز الإسمنتية خشية مرور سيارة مفخخة، أبكي بيوته الفارغة من أصحابها وليله الصاخب بضجيج المدافع، وياسمينه المنتحب على شهدائه، الباكي وطنه.

تباً لحربٍ سرقت منّا نضارتنا وحياتنا، وأودعت لنا الألم والدماء والعذاب، بدأتُ قتل الملل بقراءة بعض الكتب من الهاتف المحمول، كل يوم أحمّل عشرات الكتب من الشبكة

العنكبوتية وأبدأ بالقراءة، الكتاب تلو الآخر، تدمع عيناي وتحرقاني لقرب الهاتف من عيني، أغمضهم لثوانٍ وبعدها أفتحهما، أرمي الهاتف على السرير وأقف أمام النافذة أتأمّل الأفق البعيد، زرقة السماء وسحبها البيضاء، ترتاح عيناي قليلاً من إشعاعات الهاتف النقال. لو لم يكن هنا حرب وغلاء ولو لم يفقد والدي لكنت الآن أقرأ الكتب الورقيّة وأضع علامات على اقتباساتها المميّزة. بدلاً من هذه المخزّنة على هاتفي والتي أتعبت عيني.

ارتاح بصري قليلاً فجلستُ على السرير واضعة ساق على أخرى، حملت هاتفي وفتحت برنامج "الفيس بوك" وكتبت على حائط صفحتي الافتراضية:

(يؤلمني هواؤك يا وطني، هواء ينبعث منه دخان نار اجتثّت حياتنا واقتلعت فرحنا.

تعذّبني نسماتك الآتية من هناك... من جهة الموت والخراب والدمار.

تقتلني مشاهدة والدتي للجرائم التي تحدث بحقّك وهي مستمتعة لا تفهم شيئاً.

يبكيني صراخ أطفالك الذي ينبت في قلبي أشواكاً من الأسى واللوعة.)

"سنا"

أعطيتها الإذن

بالنشر ووضعت الهاتف على الطاولة، عادت والدتي لمناداتي من جديد، تبّاً إنّها أخبار الحادية عشر والنصف، ستبقى جالسة أمام التلفاز لعلّها تسمع خبراً عن والدي، لعلّ المذيع ذا البشرةِ البيضاء يبشّر بوجوده في مكان ما آمناً، كلّها محض أوهام وما زالت أمّي إلى الآن تصدّق تلك الخرافة بوجوده قربنا في كل الأوقات. لبيّت نداءها هذه المرة برضا تام وجلست بجانبها، أنظر إليها وهي تشاهد ما يتفوّه به المذيع دون أن تفهم كلمة واحدة. أشرح لها كالعادة ما يجري على الساحة. وأهرب من جانبها قبل البدء بخبرٍ جديد، وأعاود شرح مالا أطيقه البتّة.

أدخل غرفتي وأغلقها بإحكام خشية أن تعاود أمّي مناداتي وكأنّ صوت أمي يخترق الباب ويدمّر كلّ الهدوء من حولي، ارتميت على السرير وغصت في نومٍ عميق وكأنّ كل المأساة لا تعنيني. استيقظت في الساعة الثالثة فجراً طلباً للماء قد جفّ فمي وكأنني لم أشرب منذ عقد من الزمن، ارتشفت كل الكأس المتواجد على الطاولة الصغيرة بجانب سريري، فهرب النوم من أجفاني، حملت هاتفي لأتفقّد تعليقات معجبيّ وأردّ عليهم بالحماس ذاته الذي اعتادوه منّي.

من بين كلّ التعليقات لمحت تعليق فتاة لا أعرفها بارزاً مشعّاً كوهج المصباح يناديني كي أقرأه (الوطن الصغير أنا... الوطن الكبير أنت) لم أفهم تعليقها ولا مقصدها، أجبتها بعد تفكيرٍ عميق (كلّنا للوطن صغاراً كنّا أم كباراً) انتظرت منها ردّاً آخر على كلامي لكنها اكتفت بوضع إعجابٍ فقط. أثار تعليقها حفيظتي وشغل تفكيري، فبحثت في

صفحتها علّي أجد ضالتي فلم أجد أيّ شيء مثيرٍ للشبهات، يئست منها سريعاً وتركتها لألتفت لباقي التعليقات أود الرد على جميعها، لم أكترث لها في البداية ولكنّ تعليقاتها على منشوراتي تجاوزت الحدّ المسموح به وكأنها تقصد الدخول إلى صفحتي والتعليق على كل المنشورات فيها. كنت ألاحقها على الفور وأركض وراءها من تعليق لآخر حتى تعب عقلي وأرهقت يداي فتركتها لشأنها، تعليقاتها جدّ مبهمة مليئة بالطلاسم والألغاز، في البداية اعتقدت أنّها تحاول الظهور أمام الجميع على أنّها مثقّفة، لذلك لم أعد أردّ عليها وتجاهلتها وكأن الأمر برمّته لا يعنيني. غضبت مني فأرادت استرداد كرامتها المسلوبة فاقتحمت عليّ عزلتي وبعثت لي برسالة فظّة وأكملتها بلهجة غاية في التأديب، جاء دوري لأستعيد كرامتي التي سرقتها مني الآن ولكنها سبقتني بسؤال ألهب تفكيري.

- أريد كتابة رواية لي، ووحدك من سيكتبها وسترويها على لساني...ما رأيك في الاجتماع غداً في حديقة عامّة؟ سنكتبها في يومٍ واحد وسأجعل منك كاتبة عالميّة بجدارة، فأنت تستحقّين اللقب، اكتبيها كما سأمليها عليكِ ومن ثم اطبعيها في المكتبات على نفقتي الخاصة هي وجميع ما خطّت يداك، أنا أعرفك جيداً ولكنّك لا تعرفينني. تعالي في التاسعة والنصف صباحاً وإياك والتأخّر، فأنا أحب الالتزام في المواعيد أيّاً كانت.

أنهت رسالتها وأقفلت حسابها على الفور دون أن تترك لي فرصة لسؤالها عمن تكون، تركتني في ذهول لدقائق زادت لساعات، هجرني النوم بسببها وزارني الأرق ليلتها، شغلت تفكيري وباتت تتحكّم في كل خلايا دماغي، تصارعت الأسئلة في رأسي، كلّما جاوبت على سؤال زارني آخر حتى

شارفت الشمس على البزوغ وأنا في تفكيرٍ شديد. هل أذهب؟ أم لا؟

نمت أخيراً بعد أن قررت الذهاب وحلمي في الشهرة بات قريبٌ مني، بصراحة طمعت في ذلك مما جعلني أنام وتفكيري بجائزة نوبل تحملها يداي، لن أخشى شيئاً فاجتماعنا سيكون أمام العامّة، علام الخوف إذاً؟ لن يحدث لي ما يخيف أنا واثقة من ذلك، ورغم ذلك اضطربت أعضاء جسمي وكأنها تنذر بخطرٍ على وشك الحدوث. تجاهلت كل ما يخيفني في صباح اليوم التالي وهربت من البيت قبل استيقاظ والدتي فتعيقني عن الذهاب، لكنها استيقظت على صوت إغلاقي للباب مع أنني حاولت قدر المستطاع ألّا أحدث ضجة، استيقظت في نهاية الأمر لحقت بي إلى باب البناء تناديني أن أعود إليها، لا تريدني خبراً عابراً في أخبار التاسعة والنصف، صدى صيحاتها تردد في ذهني دون أن

يخترق قلبي، في هذا اليوم بالذات أرجوك يا أمّي أن تتركيني وشأني. ابتعدت عنها كثيراً فما عاد يصلني بكاؤها الناتج عن خوف كبير أن يحلّ بي ما حلّ بوالدي فتفقد الاثنين. نحن أبناء الحرب يا أماه، علّمتنا أن نترك أشياءنا خلفنا ونمضي بثبات. علّمتنا أن نركض نحو القذائف قبل أن تركض نحونا. اعتدنا على الكثير ولن نوقف حياتنا لها، لأننا لا نعلم متى ستنتهي؟

مشيت في شوارع دمشق التائهة مثلي في الازدحام الصباحي ووطن الصغيرة قد سرقت لب عقلي، اسمها يوحي لشابٍ في مقتبل العمر وليس لفتاة عادية، ومع ذلك لنقتات المغامرة حبّا واكتشافاً فالكاتب الجيد لا يجب عليه أن يخاف.

وصلت إلى الحديقة التي تواعدنا فيها، وقفت أمام بابها أبحث بناظري عن صورة وطن صغير يبتسم للجميع. تناهى إلى سمعي صوت فتاة بالغ النعومة وكأنّها طفلة صغيرة.

- ألم يكن موعدنا في التاسعة ونصف؟ أخبرتك بعشقي التزام المواعيد.

التفتّ إلى مصدر الصوت فوجدت القمر خلفي يتأمّلني، إن كنت أنا كما أسماني والدي سنا (ضوء القمر) فهي وهج الشمس، جمالها رهيب ونظراتها حادّة كلبؤة مفترسة. كانت ترتدي عباءة سوداء مزركشة ولفّت شعرها بشالٍ أبيض مما أضفى على بياضها بياض، تبادلنا النظرات لثوان ومن ثم بادرتُ بالاعتذار منوّهة أنّ الطريق مزدحم. ابتسمتْ لثانية ثم غابت الابتسامة كلمح البصر وقالت:

- لا عليك، الحياة لا تتم على وتيرة واحدة، كلّها كذب وخداع، لا يجب علينا تصديق ما نرى وما نسمع.

أتراها طلبت رؤيتي لتكمّل سلسلة الألغاز التي لم أفهمها إلى الآن. مدّت لي يدها لتصافحني فمددت يدي وابتسمت لها عرّفتني عن نفسها (وطن)، تركت يدي ودعتني إلى الدخول ودخلت أمامي، مشيت وراءها وأنا مغمضة العينين، مشلولة الإرادة، جلست على آخر مقعد في الحديقة ولا أدري ما السبب الذي دفعها إلى اختيار هذا المقعد. في البداية سألتني عن سبب عدم نشري لأي رواية من رواياتي، أخبرتها بعدم توفّر المبالغ الماليّة المتطلبة لذلك بحوزتي، وعدتني بطباعة جميع رواياتي على نفقتها الخاصة، رقص قلبي وهلل من وقع ما سمع. طلبت مني في البداية الاتصال بشابٍ تعرفه اسمه مالك إذا حصل لي مكروه بعد كتابة الرواية وأعطتني رقم هاتفه، اشتاق القلب لسماع قصّتها التي دعتها لمقابلتي، كلّي شغف يا وطن لمعرفة ماذا تخبئين في جعبتك من حكايات؟

فتحت حقيبتي وأخرجت جهاز المسجّل، قمت بتشغيله لتبدأ وطن بسرد روايتها وهي تنظر إلى الفراغ تستحضر كل ما في ذاكرتها.

وطن

من رحم المعصية ولدتُ كذنب لا يغتفر.

خطيئة صغيرة كنت في بلاد الخطايا.

جرمٌ صغير في ملكوت كبير.

كوطنٍ صغير عاجزٍ عن حماية وطنه الكبير كنت.

أسموني وطن وتغنّوا بحب الوطن الكبير سنيناً لا تعد، دفنوا الوطن الكبير وعجزوا عن دفني، آلامهم اسمي... كيف لوطن مثلي أن يعيش بينهم، خافوا على أنفسهم ولكنهم لم يئِيدوني.. بل حاربوا لاغتيال مشاعري وأحلامي، عجزتُ عن حماية نفسي يا أمّي... فهل أستطيع حماية الوطن الكبير يا أبي؟

(وطن)

((كنّا مدنّسون بالخطايا قبل ولادتها، جاءت هي لتنمّي تلك الذنوب وتجرّنا إلى متاهات الهلاك)) هكذا كانت تصيح الجدّة كلّ صباح، نبكي عمراً ما عاد لنا، ننتحب واقعاً بات لغيرنا، وكأنّ الله عاقبنا بها، نحن من حلمنا وهم وحدهم نسجوا أحلامنا على ضوء أوهامنا ونسجوا لنا كوابيساً تفزعنا وترعبنا.

من رحم الإرهاب ولدت وكبرت ونحن في غفلة عن كلّ هذا، بينما كنّا نحلم كانوا هم يخططون لواقعٍ لنا ينسف جلّ أحلامنا، قتلوا آمالنا بوحشيّة وزرعوا الخوف في الأفئدة، قتلوا الحبّ الكبير فينا ولكنهم لم يقتلوا وطننا في قلوبنا، بينما كنّا نسير رافعين الرأس متيمين بشوارع الوطن، كانت عيونهم تراقبنا وتعدّ العدّة لتفجيرات تقتل معظمنا، هربنا منها خوفاً

على أنفسنا من شرٍ اقترب منا، وبينما كانت هي تكبر كنّا نحن نتغنّى بتراب الوطن فكبرت معنا حتّى أبادت نصفنا.

((وطن))

لا تصدّق كلّ ما تراه أو تسمعه، لا تصدّق شيئاً فمثلك الأعلى ربما يكون خاطئاً وربّما يكون منافقاً لا تنجرّ وراءه.

لا تكن نوراً لأحد، كن النور لنفسك، كن أنت، أنت وحدك مثل ذاتك الأعلى، كلّ ما يقال لك مجرّد أكاذيب خادعة.

فمن تغنّى بحبّ وطنه سنيناً سيأتي يوماً ويكون أوّل الفارين خارج حدود الوطن حين تطلق أوّل رصاصة على أرضه، والطهارة والعفاف ما هي إلا رذيلة سريّة لا أحد يعلم بها سوى من فعلها وتغنّى على مدار أعوامٍ بالعفاف.

((وطن))

ما زالت الأرجوحة تعانق

الشمس في السماء، تطير عالياً في الهواء لكنّها فارغة من كلّ حياة، فارغة من روح طفلة كانت تجلس عليها وتمسك الحبل بيديها الاثنتين خائفة من الوقوع أرضاً، وضفيرتاها الذهبيتان تعكسان تألّق وهج السنابل الذهبيّة.

صاحت وطن قبل أن تباغتها يد الغدر فتسرق نضارتها، (أرجوك أمّي إلى الأعلى، اجعليني أسابق النوارس وأطير معهم عالياً في السماء، لا توقفيها ... أرجوك). لكنّ صوتها لم يصل إلى أذن والدتها التي كانت تأرجحها للتوّ وتغنّي لها كلّ الأغاني التي تعشقها الصغيرة وطن. ذاك النهار غاب باكراً وجاء ليل الظلم سريعاً لتظهر عمالقة لا تعرف الرحمة أمسكوا الأرجوحة بقوّة وأنزلوا وطن منها عنوة،

حاولت الإفلات من بطشهم، لكنّها أمامهم كالفأر الصغير، بكت بشدّة دون أن يلتمسوا العذر لبكائها العنيف.

هبّت رياح الخوف في كلّ البيوت تنادي للأحزان القابعة خلف الوجوه الصامتة والمنكسرة الخائبة الذليلة، لا سامح الله هؤلاء الجبناء، جعلوا الوطن يمتلئ بالأحزان، جعلوا فيه انكسارات لا تجبر، دموع لا تكفكف.

دموع انسابت بغزارة كالشلّال، امتلأت شوارع المدينة بالدم الأحمر فغطّت مياهها النقيّة، كلاب الليل بدأت تنبح دون سبب يذكر، هاجت بسرعة تبحث عن جثث متفرّقة لتنهشها، غربانها طارت في الأعالي وهوت على أسطح البيوت تراقب ما يجري على الساحة وهي تنعق باستمتاع واضح لتوفر الجثث. تعالت أصوات النساء في كلّ البيوت وزاد بكاء الأطفال؛ وأرهقت الأنفس؛ ورفعت الأيدي إلى خالقها تطالب بالفرج وأن يرفع عنها الظلم سريعاً.

ذهبت وطن الصغيرة والوطن الكبير إلى مكان مظلم في القاع لم تطأه من قبل، فرغت المدينة من كلّ حياة ورياح الألم مازالت تعبث بها، شبحّ الموت استقرّ في أحيائها، قطّعت رؤوس رجالها بالسيوف الغليظة، حُرقت البيوت بمن فيها، دُمرت أحياء كاملة عن بكرة أبيها، اسُتحيت نساؤها، سُرقت أطفالها، باختصار عاثوا في الأرض فساداً ولم يجدوا إنساناً واحداً يقف في وجوههم لذلك زاد بغيهم الذي فاق الحدود.

وبقيت تلك الأرجوحة تداعبها الرياح تنتظر طفلتها الصغيرة..

* * * * * * *

ابتلعت لعابها بصعوبة وارتشفت القليل من الماء ثم قالت:

- "هناك كانت البداية؛ بداية آلامٍ لم تسبقها آلام، من رحم الفجور ولدت الخطيئة، خطيئة ليست كباقي الخطايا، خطيئة لن تغتفر مهما حصل، كانت الأولى وتوالت تباعاً حتّى دمّرت دولة كان شعارها باقية وتتمدد".

نحن نستحقّ ما حدث لنا، نستحق غضب الإله، نستحقّ أن نعاقب لأنّ حياتنا

كانت تسير على خطأ، دروبنا مليئة بصراعات لا تنتهي، ونفوس تشتهي كلّ شيء.

* * * * * * *

اختفى والدها

عزيز قبل يومين من اجتياح تلك العصابات الإرهابيّة للقريّة الصغيرة، اختفى دون سابق إنذار ولم يعرف أحد عنه شيئاً، ولم يدرك أحد سرّ اختفائه، بحث أهله عنه في كلّ الأحياء ولكن عبثاً لم يعثروا على خيطٍ رفيع يدلّ على مكانه، ربّما كانت صدفة أن حادثة اختفائه تزامنت مع قدوم هذه العصابات.

بقيت والدة وطن قمر تداعب طفلتها كي لا تسألها سؤالها المليون عن سرّ اختفاء والدها، وقمر نفسها لا تعرف لوجوده مكان وعقلها يعمل ليل نهار يفكّر بزوجها وغيابه المفاجئ. كلمته الأخيرة قبل رحيله ما زالت تضجّ في ذهنها (وطن ستغدو كبيرة... ستستعيد الوطن الكبير) كيف لوطنٍ أن تستعيد وطن ما زال في الأمان موجود؟ وإن غاب الأمان

عنه أين سيكون رجاله ؟ ولماذا الخوف على الوطن الكبير يطلّ من عيني عزيز؟ فيتحدّث على الدوام عن خطرٍ يهددها ويقترب من أحلامها.

تشرّدت العائلات، وقف الرجال على الجدار وقد عُصبت أعينهم وقيّدت أيديهم، أعدموهم بالرصاص بسبب تحدّيهم للدولة الجديدة، فقط من يستحقّ الحياة هو من بايع "داعش" ووقف معها في الصفّ ذاته. ومن رفض رصاصة واحدة قادرة على قتله وإرساله إلى العالم الآخر، عالم لا خوف ولا قتل فيه.

وضعوا النساء في قبو كبير للمزايدة عليهن وبيعهن بأبخس الأسعار. أمّا الصغار وهم أكثر من لاقوا الظلم في ظل الدولة الجديدة، قساوة قلوب الكبار فاقت الحد ولم تشفع لهم طفولتهم البريئة ونحيبهم المتواصل، يبكون ليل نهار ولا سامع لبكائهم ونحيبهم، كفكفت وطن دمعتها وبحثت بعينيها

عن والدتها فلم ترها، كان القبو يعج بالأطفال الصغار فقط، استطاعوا بكلّ سهولة ويسر تفريقهم عن ذويّهم كي يُباعوا أيضاً بأغلى الأسعار وأثمنها. نظرت وطن إلى يدها فوجدتها فارقت يد أمها، للمرة الأولى قمر تترك يد وطن وتخشى أن تتركها إلى الأبد، جلست على الأرض وكوّرت جسدها الصغير وتذكرت كلمات والدتها في الليلة الفائتة وهي تهدهد لها في المهد كي تنام، ظنّت أنها قد نامت ولكنّ وطن كانت تستمع لكلّ كلمة تفوّهت بها والدتها (خمس سنوات على زواجي من والدك ونحن نحلم بصبي يحمل اسم عزيز، حملتك في تلك الليلة لكنه حزن لأنني رزقت بطفلة وكان يمنّي نفسه بالصبي فسمّاك وطن كي يعشقك عشقه لوطنه، وبعد خمس سنوات على تلك الليلة خسرت والدك وأخشى خسارتك، وجودك كان من أعظم هدايا الله لي، وجودك معنا وتعلّق والدك بك منعه من الزواج مرّة أخرى بحجة إنجاب

الصبي، كان يفرح في كلّ مرّة يناديكِ باسمك، قالها لك بهمس في أذنيك تستحقّين هذا الاسم فحافظي عليه يا بنيّتي، ولكن يا طفلتي إن وقفت ذات مرّة أمام طريقين الأوّل يطلب منك حماية نفسك والثاني يطلب منك حماية الوطن الكبير، اختاري الأول يا بنيّتي فالثاني له رجاله يحمونه).

توقّفت الأرجوحة فجأة... التفّتت وطن لترى وجوهاً مغطاة بأقنعة سوداء، لم تلمح قمر خلفها كما اعتادت أن تسمّيها أو كما كانت تناديها (القمر أمّي... وأمّي هي القمر) شعرت وطن للوهلة الأولى بخذلان والديها لها، هي الآن طفلة في الخامسة من عمرها وحيدة دون مدافع عنها، اشتاقت لأحضان والدها عزيز وقبلاته الصباحيّة، تكوّرت على ذاتها أكثر وخبّأت رأسها الصغير بين قدميها وبكت بحرقة غياب عزيز عنها وخذلان قمر لها.

مرّ أسبوع دون أن يروا الشمس ولا القمر، تأتيهم امرأة ذات عباءة سوداء وبرقع أسود تضع لهم الطعام وتراقب أكلهم وهي تمطر عليهم بوابل من صيحات وشتائم قذرة، بيدها السوط تضرب كلّ من يتلكّأ عن الطعام أو يصدر صوتاً أو حتّى همساً.

غابوا أسبوعاً كاملاً ودخلوا عليهم كذئاب بربرية همجية مفترسة يبحثون عن أضاحٍ لهم تكون في يوم النصر كهديّة من خالقهم، غنائم حربٍ كانوا (ولهم الحقّ في كلّ ما يفعلوا بهم) صرخوا بأعالي صوتهم كي يسكت الأطفال عن البكاء، صوّبوا فوهات بنادقهم على صدور الأطفال الصغار كنوع من التهديد القاتل، تراجع الأطفال إلى الخلف واحتموا خلف بعضهم البعض، تبوّل البعض منهم على نفسه لشدّة الخوف الذي لحق به، والبعض منهم توقّف قلبه الصغير عن النبض فتركوهم هناك دون أن يشفقوا على بقية الأطفال من رهاب

اعتراهم، اختاروا من بينهم عشر فتيات صغار، الفتيات الأكثر جمالاً وإثارة ورشاقة ولسوء حظ وطن كانت من بينهن. همسوا بين بعضهم لدقائق ثم نادوا عليهن، أمسكوها من ذراعها فلم تبك كعادتها حين يمسكها غريب، لأنها كانت وببراءة طفلة تأمل أن ترى والدها في الأعلى يخلّصها من جحيم هي فيه الآن، لكنّ آمالها وأحلامها ضاعت على باب البناء في الأعلى، ضاعت أحلامها في زحمة الإرهاب الكائنة فيه، مشوا جميعهم ومعهن الفتيات الصغيرات وكلّ واحدة منهن تنتحب بصمت يشقّ الأنفاس ويفطر القلوب.

وقفن جميعهن بصفٍّ واحد أمام أميرهن ورئيس عصابتهن الذي تجاوز عمره الخمسين، نظر إليهن جميعاً وعرّاهن بنظراته القذرة، تأمّلهن الواحدة تلو الأخرى لأكثر من عشر دقائق ثم اختار وطن ومعها اثنتين ورفض الجميع.

اقترب منها مبتسماً مكشّراً عن أنيابه الصفراء، مسح على شعرها الأشقر الذهبي ذي الضفيرتين وسألها عن اسمها، ارتعشت من الخوف بسبب ضخامة يده على جسدها الصغير وأجابت بهمس يكاد لا يسمع "وطن" سمعه على الفور مع أنّ الصوت كان خافتاً جداً، ارتعد من ذاك الاسم الصغير وتغيّرت ملامح وجهه في أقلّ من دقيقة.

صرخ:

- لا ... لا ... لن أدعك بهذا الاسم أبداً، سأختار لك اسماً يليق بضفيرتيك، هنا سيكون لك اسم آخر.

فكّر قليلاً وهو يتأمّل بياض بشرتها، ثمّ صاح:

- ستكونين "جدايل"، رمز لجديلتيك الصغيرتين.

من الآن أصبح اسمك "جدايل" فهنيئاً لك الاسم الجديد.

أراد محو وطن من الوجود، وطن الصغيرة لا يمكن أن تنفى بسهولة، ولا يمكن اقتلاعها من الذاكرة، أرهبه اسمها فخشي على إمارته منها، هنا اسمها محرّم وفي كلّ اللغات ممنوع على الجميع البوح به، لا يمكن لوطن أن تكون في ذات المكان الذي يكون هو فيه، ولكن جدايل ستكون معه في كلّ الأوقات، لم يقبل بأقلّ من وأد اسمها كما وأد الوطن الكبير، هذا الاسم يذكّره بحرمة اجتازها، بخطيئة ارتكبها، بعنفٍ فعله. تذكّره بشعبٍ أراد العيش بهدوء وأمان فاغتال أمانيه الصغيرة وحجز حريّته، وها هي وطنٍ تلفظ اسمها مرّة أخرى أمامه بشموخٍ كما يذكر الأسير اسم وطنه بكلّ اعتزاز.

- اسمي وطن وليس جدايل.

هكذا رفعت وطن رأسها عالياً لتجيب على استبداده، فصرخ بها عالياً حتى كاد أن يجمّد الدم في عروقها، وصفعها صفعة قويّة رمتها على الأرض، فأخفضت رأسها لعلّها تتقي شرّه.

أمرهم أن يأخذوا كلّ فتاة إلى مكان، أمرهم بقصّ ضفائرها وحرمانها من حقوقها كطفلة، أمرهم أن يزيلوا الدرن عنها وترتدي ثياب الجواري في القصر.

صرخت وهي تنظر إلى عينيه الحمراوتين بأعلى صوتٍ ولكن في أعماق قلبها:

- ولكنّي سأبقى وطن، سأظل كما أنا مهما حاولت تغييري، قالها لي عزيز من قبل، إنني وحدي من

سيستعيد الوطن الكبير منكم. سأكبر يوماً وسأستعيد اسمي منك وبعدها لن يكون لك وطن تقاتل فيه. عزيز يعرف ما سيحصل ويعرف ما سيجري وإلّا ما كان سيخبرني بما هو آتٍ.

خرجت من أمامه وعقلها يرفض الاسم الجديد، استحمّت لوحدها كما أمروها وألبسوها عباءة سوداء طويلة، وقصّوا ضفائرها كما أمرهم أميرهم، نادوها باسمها الجديد جدايل فلم ترد، ادّعت الصممّ كيّ لا تسمع اسم لا يوحي لها بشيء، أين جدائلها التي ينادونها بها؟ لماذا اجتثوها؟ وما الغرض من كلّ ذلك؟ هل أرادوا تغيير وطنٍ ككل فلا تخيفهم بعد الآن؟ أم أرادوا قتلها لتحيا من جديد باسم جديد ووجه جديد ولتكون خادمة مطيعة لدولة تدعى (دولة الخلافة).

وضعوها في غرفة كبيرة في القصر الكبير، سرير ملكيّ عليه أغطية بيضاء كالعرائس. ستبقى هنا حتّى تنضج فيحتلّها أميرهم كما احتلّ وطنها من قبل، ستكون هنا أميرة غرفتها ولكنّها منفيّة وحيدة في سجنٍ ممتلئ بأطايب الطعام، أسيرة في مكان لا تعرفه باسم جديد لا ترغبه وواقع ستعيشه من دون إرادتها، لا ترى شيئاً في الخارج سوى أرجوحة كبيرة لم تصمم لها، ودّت لو تنزل إليها، تستلقي عليها وتنام، تحلم بقمر تأرجحها وضحكات عزيز خلفها، لكنّها لم تكن لها ولن تكون لها، مُحرم عليها اللعب هنا فهي الآن أضحت من أميرات داعش مسلوبات الحرية، لا يلعبّن سوى برؤوس النسوة الرافضات للذلّ والهوان.

كلّ ليلة يسرقها الحنين إلى تلك الليالي برفقة والديها، تتكمش على ذاتها في السرير تبكي خذلان عزيز وقمر لها، تبكي قسوة الحرب التي آذتها دون أن يكون لها يد فيما جرى،

تبكي ظلم سجّانيها وانعدام الرحمة من قلوبهم، إلى الآن لم يأت أحد منهم لنجدتها، وتتساءل في سرّها إن كان أحدٌ منهم قد عاد إلى تلك الأرجوحة ولم يجدها هناك، هل بحثوا عنها في البيت القديم (بيت الجدّة)؟ الذي كانت تهرب إليه من والديها من عقاب يوشك أن يوقع بها بسبب كلامٍ تقوله أو فعلٍ محرّم تفعله، ربّما نسوها وأغلقوا صفحة من كتابٍ كانت بطلة فيه.

فتحت السجّانة الباب عليها لتقدّم لها بعض الطعام والماء البارد، نادتها باسمها الجديد فلم تستجيب لها كعادتها حين تنادى بهذا الاسم، أقسمت مئة مرّة إن أعادوا جديلتيها إلى شعرها ستستجيب لهم، ولكنّ ما اجتثّ من الشعر هيهات أن يعود، هددتها للمرّة الألف أن تنسى ذلك الاسم وعليها أن تستجيب حين ينادونها، صمتت ككلّ مرّة تسمع فيها ذات الكلمات القاسية ونبرة الصوت الحادّة ذاتها، وترى الزبد

يتطاير على وجهها من فم معنّفتها، تومِئ برأسها علامة القبول والموافقة بدموع في القلب تبكي، وما إن تخرج تلك المرأة من الغرفة الصغيرة حتّى ترتمي على السرير وتترجم دموع القلب إلى عبرات تغسل وجنتيها، تهمس في صمتها عشرات المرّات (وطن) لن تنساه بتاتاً ولن تدعهم يضيّقوا عليها الآفاق فتنساه رغماً عنها، ستغدو شابة في المستقبل وقد ينساها عزيز ولكنّه لن ينسى وطنه، هي من ستذكّره بوطنه، اسمها سيعيد إليها والديها من جديد، لن تهجره بتاتاً فهو صلة الوصل بينها وبين ماضيها، ستلتقيهم يوماً ووحده الوطن سيجمعهما معاً على أرضه وبين طيّات شوارعه، قررت أخيراً أن ترد على نداءاتهم كما يحبّون. وإن كانت الجدايل نفسها قد قتلت، ولكن ستجاريهم على كذبتهم تلك، وستدع لنفسها حق الاحتفاظ بوطن. ستحفظه في قلبها وبين دفاتر ذاكرتها إلى الأبد.

لم تحبّ شيئاً هنا سوى سريرها الكبير فهو المكان الوحيد الآمن في القصر، وإن كانت تأوي إليه لتبلل الوسادة بدموعها إلّا أنّه ملاذها من بطش ما حولها، كلّ صباح تستيقظ قبل شروق الشمس من كابوس أراد خنقها، تأكل لوحدها طعام لا تطيقه ولكنّها مرغمة على الاستمرار في الحياة، ممنوع عليها مغادرة الغرفة لأيّ سبب كان ولا ترى سوى سجّانتها وهي تضع لها أطايب الطعام وتصرخ في وجهها على كلّ شيء وفي كلّ شيء، تخاف وطن ذات الخمسة أعوامٍ منها وتقف في زاوية الحجرة خوفاً على جسمها الصغير من سوط معنّفتها. هنا لا أحد باستطاعته مدّ يد العون لها ولا حتّى بابتسامة واحدة تزيل بها جراح قلبها النافرة، كلهم يخشون بطش الأمير وبغيه.

القصر كبيرٌ جدّاً بداخله عشرات الأجنحة وفي كلّ جناح عشرات الغرف، حتّى صديقاتها اللواتي كنّ معها

ويعشن القدر ذاته لم تعرف في أيّ جناح يسكنّ ولا تعرف أيّ مصيرٍ حلّ بهنّ، عرفوا كيف يلعبون لعبتهم القذرة بكلّ سهولة ويسر، أرادوا ببساطة التفريق بينهن كي لا يكبرن معاً ويتحالفن ضد الدولة الجديدة. في المستقبل القريب كلّ واحدة منهن ستغدو جارية لسيّدها وأمَة لأميرها، ستتثقّف كل واحدة منهن بتعاليم الأمّة الإرهابية الداعشية، الآن هنّ صغيرات وباستطاعتهم تربيتهن على نهج واحد ودين واحد هم أنفسهم لا يعرفون عنه شيئاً، الأنثى هنا في هذه البقعة من الكرة الأرضية مملوكة كأيّ قطعة أثاث في المنزل وليست مالكة، لا يحقّ لها التفوّه بحرفٍ واحد دون أخذ الإذن من مالكها.

سارت الأيّام على مهلٍ وببطء قاتل، وسرقت داعش سنة من عمرها في الغرفة الكبيرة، وغدت الآن في السادسة من عمرها، عليها الآن الالتحاق بالمدرسة ولكن لكونها جارية الأمير ومملوكته على المدرسة أن تحضر بجميعها إليها،

استدعوها لحضور الدرس الأوّل، ألبسوها عباءة سوداء وشال أسود لفت به رأسها فخطف قليلاً من وجهها، دخلت الصف وجلست في المقعد الثالث، هناك العشرات من الفتيات الصغيرات معها، آنستها المشاركة وفرحت لأن هناك من يلاقي ما تلاقي، هناك من إذا شكت له همّها المحبوس في قلبها سيبكي ألماً. دخلت معلّمتهم ذات النقاب الأسود والصوت الحاد، ألقت تحيّة الإسلام عليهن ومن ثمّ عرّفتهنّ عن نفسها دون أن تلفّظ اسمها، وتعرفت عليهن جميعاً في دقائق.

- سنبدأ الدرس الأوّل... من أنتن؟ ولماذا أنتنّ هنا؟ وما هي مهمّتكن في رسالة الدولة الإسلامية في العراق والشام؟

وخطّت على السبّورة كلمة (عرّاء) ولأوّل مرة تلفظ هذه الكلمة أمام الصغيرات وإن كنّ كباراً فلن تمرّ على إحداهن ما لم تكن قد درست على مقاعد داعش، أمرت الجميع بإعادة لفظها مرّات ومرّات حتّى يحفظنها دون الفائدة من شرحها، كانت الكلمة صعبة على وطن فلم تستطع لفظها بالشكل الأمثل، حملت المعلمة البدينة العصا وأمرتها بالقدوم إليها حالاً، وقفت بخوفٍ كبير وقدماها ما عادت تحملانها لكنّها تقدّمت رغماً عنها كي لا يحلّ بها عقاب أقسى، وصلت إلى معلمتها وكأن مر بها عام على المشي من مقعدها إلى السبورة حيث تقف المعلمة وضربتها على قفاها بالعصا عشر ضرباتٍ موجعة حتى لا تكرر أخطاءها الصغيرة. صرخت الصغيرة وهي تتوجع وبكت كثيراً فلم يشفق عليها أحد سوى الفتيات الصغيرات اللاتي لا حول لهن ولا قوّة، كانت مع كلّ ضربة تصرخ بشدّة وتخرج (آه مكلومة من قلبها). أمرتها أن

تعود إلى مقعدها بعد أن أخرجت ما في جعبتها من وحشية وسادية لطفلة في السادسة من عمرها، جلست في مقعدها تأنّ وتتوجع، من هنا بدأت آلامها وقصة ظلمها على أرضها وفي وطنها ولكن من أناس لم يعوا معنى كلمة وطن ولم يفهموا ماهيّته.

بحثت المعلّمة عن لفظٍ آخر أسهل من الذي قبله، يسهّل على الصغار لفظ الكلمة دون أخطاء، عادت لتكتب مرّة أخرى على اللوح (قَيْنَة) لم تفهم أيّ واحدة منهن الكلمة الأولى لتفهم الكلمة الثانية، نظرت إلى صديقاتها بعد أن هدأ وجعها واستكان وكفكفت دموعها، فوجدتهن في ضياع مثلها، وجدت كلّ من في الصفّ مستضعفات، ليست الوحيدة هنا المتألّمة فمعها العشرات يبكين بصمتٍ سوءِ فهمهن لكلمات تستخدمها معلّمتهنّ ولأوّل مرة يسمعونها.

نظرت إليهن وصرخت في وجوههن بسبب بطء فهمهن، وبدأت تقرأ بصوتٍ مرتفع ما كتبت آمرة إياهن بترديد ما تكتب وراءها، رددوا معها كالببغاء ولم يفهموا كلمة واحدة.

((أمَة.. جارية.. خادمة.. عبدة.. عرَّاء.. مملوكة.. قَيْنَة)) هذه الكلمات كانت الدرس الأول وتبعته الدروس ذاتها تتحدّث عن ذات المنهج، هنا باختصار أنثى داعش تحيا في بؤرة شرّهم وهمجيتهم.

جميعهن يرددن الكلمات كلّ صباحٍ كالببغاء دون أن يجرأن السؤال عن معاني الكلمات، نظرت إلى صديقاتها اللواتي تصدح حنجرتهن بكلام لا يفقهنّه، وأعجبتها روح المشاركة تلك في كل مرّة تردد الكلمات ذاتها، مع أنّها تألّمت لآلامهن ولعذابهن هنا، إلّا أنّها سرّت بوجودهن معها في هذا القصر الغامض، هي لا تعرفهن جيّداً ولكنّهن يتجرّعن كأس العذاب نفسه، يراودها سؤال واحد في كلّ مرّة تلتقيهنّ (أيّ

جناحٍ يسكنّ؟ وهل الأرجوحة تلك صنعت لواحدة منهن؟ وإن كان كذلك لماذا لمْ تلمح واحدة تلعب فيها، إذاً لمن صنعت؟ وما الغاية من صنعها؟ إن كان ممنوع على الجميع الاقتراب منها) أسئلة كثيرة تحاصرها وكلّ سؤال يوصلها إلى سؤال يجعلها تتوه في متاهات من الأسئلة الكثيرة التي لا تعرف جواب لأي منها.

عادت إلى غرفتها وكم تمنّت لو سمحوا لها بوداع صديقاتها في نهاية كلّ درس، ولكن محظور على الواحدة الاقتراب من الأخرى، أودعوا كلّ واحدة منهنّ في قفصها بانتظار درس جديد، ووأد جديد.

مضى عامٌ عليها بترديد كلمات لا تفهمها، وجاء عام آخر لا يحمل البشرى لها بل يحمل في طيّات شهوره حنظل برائحة الريحان، بدأت بالذهاب إلى المدرسة القريبة من القصر برفقة جاريات يرتديّن البرقع والعباءة السوداء، كانت

تسمّيهنّ في البداية غربان سوداء ثم ما لبثن أن أجبروها على ارتداء ذلك حتى صارت ترى نفسها غراباً أسودَ بين الغربان. سعدت بالمدرسة كثيراً إذ وجدت فيها الحريّة التي ترغبها بعيداً عن أعين الجاسوسات التي تترقبها في كل الأوقات، وإن كانت الحريّة لساعات محدودة إلّا أنها كانت لحظات سعادة وراحة بال بالنسبة للصغيرة. وإن كانت الحريّة هنا مشروطة إلّا أنها رغبت بها لوجود بنات في مثل سنّها تلعب معهنّ ويتجاذبن أطراف الحديث ويتسامرن في أوقات الفراغ.

التعليم هنا مقتصر على الحساب والقراءة وأمور الدين التي تفضّلها دولتهم إذ انتقت من الأحكام ما يتناسب مع حياتها الخاصّة في السياسة وجبهات القتال وبعض من الأمور التي تقرر مستقبلها.

كانت البندقيّة تمثّل حرف الباء والراء تمثّل الرصاصة والتاء تمثّل التفجير وهكذا تعلّموا جميع الأحرف من كلماتٍ

إرهابيّة تحثّهم على القتال في صفوف المجاهدات ومواصلة درب داعش إلا ما لا نهاية، القتال هنا له شروط تقابله الجنّة ومأدبة مع الرسول في جنات الخلد. أشعلوا عقولهن بأفكارٍ هم من أرادوها، غسلوا عقولهن ومسحوا ماضيهن، فهنا البقاء للأقوى وليس للأقدم، هنا التاريخ يكتبه المنتصر فقط ولكن كيف تكتب دولة تاريخها وهي ولدت للتو دون تاريخ.

حذفوا المناهج الدراسية واستعاضوا عنها بمناهج تناسب استراتيجيتهم، كان الحساب عبارة عن تعداد الذخائر وعدد مرّات التكبيرات، المسائل عبارة عن عمليات جهاديّة وحرب مجموعات مع بعضها وطرق ضمّهم وفرزهم. تعلّموا الساعة من قنبلة موقوتة وضعت على الجدار، كانوا بذلك يضربون عدة عصافير بحجر واحد، استطاعوا بذلك أن ينزعوا الخوف والرحمة من صدور الصغار وأن يزرعوا الوحشية وقسوة القلب

بدلاً عنها؛ لم يعرفوا الجغرافيا والتاريخ والعلوم، حتى التربية الدينية كانت تعاليمهم وفتاوي أمرائهم فقط.

بدأت تعاليم داعش تدخل إلى عقولهم وترتكز فيها، وترسّخ قيماً جديدة ومبادئ غريبة، تعلّموا العنف والصراخ والكفاح مع داعش في أيّ شيء وفي كلّ شيء.

تغيّرت تصرّفات الأطفال كثيراً في سنة واحدة وأصبحوا جزءاً لا يتجزّأ من داعش، انتقلت أفكارهم إلى عقولهم عن طريق الدروس اليوميّة، بدأت الأشهر تسير على مهل وكأنّ موعدها مع الموت قد اقترب، وفي كلّ شهر يتعلّم الأطفال شيئاً جديداً عن الدولة وقوّتها.

بدأت الجغرافيا والتاريخ وبرمجة الحاسوب والكيمياء والرياضيات واللغة الإنكليزية تعود لمقاعد الدراسة وتصبح جزءاً كبيراً من المنهاج الدراسي، وأصبح الفهم عصيّاً على

التلاميذ الصغار إذ اختاروا من كل منهاج ما أرادوا صبغتهم به.

اعتادوا العدّ عن طريق الجلد بالسوط، واعتادوا مشاهدة قطع الرؤوس دون أن يرف لهم جفن، في البداية كان الوضع ظلماً كبيراً لهم، بكوا كثيراً وتبوّلوا على أنفسهم، لكنّهم أرغموا على مشاهدة تلك المشاهد الدموية ، على رؤية الرؤوس والأجساد المتساقطة من الأعلى بسلاسل حديدية والاستمتاع بها، باتت قلوبهم قاسية لا تلين، عيونهم حمراء شرسة كالذئاب المفترسة، جلودهم خشنة، أكتافهم غليظة، ماتت الابتسامة على وجوههم الصغيرة ليحلّ محلّها التجهّم والعبوس.

صاروا يتراكضون إذا نادى المنادي أنّ هناك إعداماً لأحدهم على وشك التنفيذ، يستمتعون بمشاهدة الرؤوس تقطع

فلم تعد تلك المشاهد ترعبهم، بل صارت مصدر قوّة لهم ودافع يحفّزهم إلى الأمام.

*   *   *   *   *   *

كبرت وطن

الصغيرة في غرفتها، وككل عام حين تكبر يلبسونها أجمل الثياب ويسوقونها كالنعاج إلى أميرهم، يدخلونها إليه مطأطأة الرأس لا تدر أيّ مصير ينتظرها، ينظر إليها بشهوة قذرة، يملّي عينيه بجسدها الصغير ومن ثم يأمرهم بإعادتها فلا حاجة له بها الآن.

يخبرهم أن الثمر لم ينضج بعد ولم يحن موعد قطافها، لا تفهم وطن تلك الجملة ولكنها تعود إلى غرفتها دون همومها إذ تركتها في غرفة الأمير، تخلع ثيابها وتعود لارتداء عباءتها السوداء، تقف أمام مرآة الخزانة، وفي عينيها دمعة انكسار لأنّ ثمرها لم ينضج بعد، ولو فهمت معناها لما تمنّت ذلك أبداً، لتمنّت الموت على ما هي عليه، كانت تسمع تلك الجملة كل عام وفي اعتقادها أنه حين ينضج ثمرها ستعود إلى والديها، اقتربت من النافذة وجدت ثمار القصر جميعها

قد نضجت، ولم يتم إخلاء سبيلها بعد، عن أيّ ثمرٍ يتحدّث هذا الأمير المجنون، كلّ ما في القصر يثمر بأمر الخالق إلّا ثمرها يثمر بأمر الأمير، ثمرها باق إلى أن يحدد الأمير موعده.

كانت تتمنى النهاية ولم تكن تعلم أنّ النهاية هي بداية البدايات، هي الآلام والكلمات التي تعذّبت بسببها في سن السادسة حين نادتها آنستها (ما أنت سوى قَيْنَة مملوكة لسيّدك) هي الجارية الممنوعة من الكلام المسموح لها فقط بالاقتراب.

* * * * *

صمتت عن الكلام

فجأة وكأنّ هناك خطبٌ ما، وقفت ومشت ببطء إلى أقرب شجرة أسندت جذعها عليها وأشبكت يداها خلف ظهرها ووقفت مبتسمة تنظر إلى أعالي الشجرة وكأنّها تحدد شيئاً ما. بيني وبينها أمتار قليلة ومع ذلك خشيت ألا أسمعها فاقتربت منها ووقفت بجانبها فقالت:

- كنتُ أظنّ أنّ الأيّام الماضية كانت شاقّة عليّ كطفلة صغيرة، لم أعرف أنني كنت أعيش في النعيم حتّى صرت إلى غيرها، بكيت منها كثيراً فلّما آلت نفسي إلى غيرها بكيت عليها مراراً وتكراراً، ما أصعب_ يا سنا_ أن تعيشي الانتظار وحين يأتي ما انتظرته يأتيك بكابوسٍ مفزع يرعبك ويهدد أمنك، الانتظار كان مهلكاً وما بعد الانتظار كان أشدّ

هلاكاً، صرت أبكي أن تعود تلك الليالي ولكنّ ما مضى لا يعود بل يحفر في الذاكرة لتجلدك الذكرى بسياط الماضي.

ثم عادت إلى المقعد وجلست، عدت إليها وجلست بجانبها وأكملت الحكاية....

* * * * * *

كفراشـــة بـــين

الأزهار تطير، تنتقل من وردة إلى أخرى، تشمّ عبير الزهور وتلاحـق الفراشـات، أخيـراً سـمحوا لهـا بـالنزول مـن برجهـا العاجي، واستنشاق هواء الزرع الأخضر، أخيراً جلست علـى الأرجوحـة وطـارت بهـا عاليـاً، نـادت بعفويـة طفلـة (أمـي... أعلـى أكثر... لا توقفيهـا) عـاد إليهـا صـدى صـوتها يـردد مـا قالتـه بترددات محزنـة. انفعلت كثيراً ونسيت أنّها لـم تعد فـي ديارهـا، نسـيت أنهـا الآن جـدايل وليسـت وطـن، هـذه المـرّة الأولـى التـي تجلس هنـا وتتـذكّر قمـر وعزيـز وكأنّهـا فـارقتهم للتـوّ، و المـرّة الأخيـرة أيضـاً، سـتجلس هنـا لتتـذكر ماضـيها وتنسـى حاضـرها، هـذه الأرجوحـة كبيـرة عـن أرجوحتهـا، لـديها جديلتان ذهبيّتان كجديلتيها، ولكنها تختلف عنها أنّ أرجوحتها القديمة كانت تسمع خلفها ضحكات عزيز وغناء قمر لها، لقد

صنعها عزيز من بابٍ خشبي قديم مهترئ، لذلك كانت تراها الأجمل لأنّها صنعت من عرق والدها، لأنّها صنعت خصيصاً لها، ودارت بها الأرجوحة في ذاك النهار الذي غابت فيه الشمس عن واقعها وحلّت محلّها سحب سوداء تنذر بحدثٍ جلل على وشك الحدوث، تلك السحب التي تذكّرها بانهيار مدينتها واحتلال داعش لكلّ أجزاء المدينة، تلك السحب ما إن تأتي حتّى تستقدم الشرّ معها. نامت على همسات قمر وهي تطالبها قبل غروبها أن تحمي نفسها قبل حماية الوطن الكبير، نامت وهي تحلم بالاستيقاظ في حضن قمر، في البيت القديم تحت شجرة الياسمين، لكن من اليوم ستمنع من النوم حين تشاء عليها الاحتفاظ بذكرى الأشياء فقط، فلتنم تلك الليلة في المكان الذي حلمت به لسنين عدة لأنّها ستكون آخر ليلة لها تحقق فيه حلماً أرادته. آخر ساعة في الطبيعة وروح عزيز وقمر لا تفارقها، آخر ليلة هادئة

وآمنة وخالية من المخاوف والكوابيس، فواقعها ليس ملكها ولن يكون ملكها، لن تجرؤ على حماية نفسها ولن تطالب بذلك، وسيضيع الوطن منها ولن تجرؤ على حمايته.

عمرها الآن اثنى عشر ربيعاً وها قد نضج الثمر وآن قطافه، وصاحب الثمر من الشرفة يتأمّل مملوكته ويعرّيها بنظراته، يعدّ الدقائق لحلول المساء للتلذذ بالثمر، فهو ذئب ليلي يعشق الفريسة ليلاً وفي النهار يقتل ضحاياه ويتلذذ بدمائهم.

انتهى وقت اللعب والمرح، انتهت الطفولة باكراً، لم تنضج جيّداً وإنما نضجت قبل أوانها، كفاكهة الصيف ما إن تنضج واحدة حتى تقطف من شجرتها الأم، وتودع في البطون، قطفت من بيت عزيز منذ مدّة، ولكن الآن حان موعد الاستمتاع بها والتلذذ بأشهى الثمار، لم تفهم بعد ما هي الطفولة ولم تستمتع بها حتّى عادوا إليها من جديد ليسرقوا

منها الصبا والنضارة، أسقطوها من الأرجوحة وهي ما زالت نائمة تحلم في الماضي البعيد، أخذوها إلى غرفتها وطلبوا منها الاستحمام، كان حوض الاستحمام مليئاً بعطر الورد الليلكي، خلعت ثيابها ببطء ولا تدري أيّ مصير ينتظرها بعد هذا الدلال كلّه، استحمّت بحيرة أربكتها فهي لا تعرف لماذا كلّ هذا الدلال، لا تعلم بأنّها المرّة الأولى والأخيرة التي ستتعامل بها معاملة إنسان له الحقّ في الحياة. خرجت من غرفتها بمنشفة صغيرة غطّت به جسدها الصغير، أعطوها ثوب زفاف أبيض لترتديه، كان كبيراً على مقاسها ولكنها لم تستطع عصيان الأوامر، ارتدته ومشطت الماشطة شعرها الذي أصبح أكثر طولا وغزارة مما كان عليه حين جاءت إلى هنا، وضعت لها إكليلا من ورود الياسمين. كانت تظنّ أنه إذا حان قطافها سترحل منها إلى أحضان عزيز، لكن خاب

ظنّها فمن الآن بدأت تنفيذ الدروس التي تعلّمتها في عمر السادسة، والنهاية بعيدة كثيراً ولا أحد يعلم مصيرها سوى الله.

ساقوها كنعجة تساق إلى الذبح وكلتاهما لا تدريان عن مصيرهما المحتوم شيئاً، كلتاهما سيذبحان بأمر الأمير، كلتاهما سينزفان الليلة كثيراً. ذبحوا النعجة البيضاء على باب غرفة الأمير، كانت النعجة مستسلمة لم تقاوم، كانت قرباناً لها ولسيّدها في أول ليلة معه، أمروها بالسير على دماء النعجة الصغيرة، فسارت مغمضة العينين كي لا ترى النعجة في ساعة احتضارها الأخير، أغمضت عينيها كما كانت تفعل في كلّ مرّة تمرّ من الساحة الكبير وتتراءى لها الأجساد الخالية من الرؤوس. ذبحوا النعجة وحان دورها في الذبح كل ليلة في منتصف الليل.

دخلت حجرة الأمير منحنية الرأس خائفة وليست خجلة لأنها لا تعرف لماذا هي هنا الآن، أغلقت الأبواب وأوصدت

القلوب وجدت سيّدها قد تجاوز الخامسة والخمسون يرتدي عباءة بيضاء، وأمامه طاولة كبيرة وضعت عليها مختلف أصناف المشروبات الروحيّة والفواكه، تأمّلت كأسه الممتلئ وراحت تفكّر في دروس التربية الإسلاميّة حين كانت تصرخ بهنّ آنستهنّ أنّ هذا منكر لا يجب علينا الاقتراب منه أبداً، أوليس هذا الأمير قدوة للجميع؟ هل يعرف أحد ما يوجد في هذه الغرفة من فجورٍ ومنكر؟ نظرت إليه وجدته يتفحّصها، مدّ يديه لها ونادها بغلظة (جدايل... هيت لك) اقتربت منه قليلاً وهي تنظر إلى عينيه البراقتين، ظنّت أنّه الأب الرحيم لها سيعانقها عناق الأبوّة ويضمّها إلى صدره كما كان يفعل عزيز حين يشتاق لها. ولكنّه عانقها عناق ذئب بشري وضمّها بقوّة حتّى كاد أن يكسر أضلاعها، صرخت متأوّهة ولكن هنا بالذات وهي في هذه الغرفة لن تخترق نداءاتها الجدران أبداً مهما صاحت ونادت سيبقى صياحها حبيس

الغرفة مثلها. بدأ يلثم كلّ ما فيها وكأنه يريد الغوص بداخلها ولم يشفع له صغر سنها وضآلة جسدها، أحس بنشوة جارفة فحملها ورماها على السرير الكبير قفز بجانبها وأفرغ شهوته الذكورية بداخلها، لم يرأف لعبراتها المنسكبة على خديّها، لم تسعفه تأوّهاتها وعويلها، بل كان يغوص بداخلها أكثر في كل مرة يسمع نحيبها الصامت.

تركها بعد أن فرغ منها تسبح في بركة من الدماء كانت تتمنى الموت كتلك النعجة، ليتها كانت بديلاً عنها، ماتت النعجة ووطن كانت كلّ يومٍ تموت في غرفة لا أحد يعرف ما يحصل بداخلها، حصل على مراده أخيراً بعد سبع سنوات من احتجازها، هي الآن أصبحت عرّاءه وبإمكانه الاستمتاع بها وقتما يشاء.

طمرها مرّة أخرى، مرّة حين اختطفها وسرق منها طفولتها وأبعدها عن عالمها ومرّة أخرى حين سرق منها

عذريتها وهي مازالت في طور الطفولة، استحمت فامتزجت عبراتها بماء الاستحمام، كانت تحاول جاهدة مسح ريح الفجور من على جسدها، ولكن علاماته بقيت على جسدها تذكّرها أنها لم تعد لنفسها، لا تدري بأي حال ستغدو إليه مستقبلاً، أوت إلى فراشها... ضمّت وسادتها إلى صدرها وخيّل إليها قمر بجانبها وهي تشتكي الظلم الذي حلّ بها، صرخت كثيراً وبكت ولكن كل ذلك الصراخ لم يخترق الجدران الصلبة، تكوّرت أكثر على ذاتها وضمّت ركبتيها إلى صدرها، تبكي وجعاً حلّ بها، تبكي خوفاً من أمرٍ قادم إليها. كانت تعاني من تقلّصات بطنها الشديدة ومن نزيف متواصل أدمى قدميها دون أن تأتي امرأة واحدة تخبرها ما حلّ بها أو تساعدها أو تعطيها دواء يساعدها.

وقفت على قدميها وحاولت أن تسير وهي ممسكة ببطنها تنتحب بصمت وقفت أمام النافذة فتحتها على مصراعيها وجدت رياح الخريف تلعب بالأشجار كما تشاء، ثمر الحديقة نضج في أوانه، انتظره الأمير سنة كاملة وصبر عليه إلى أن حان قطافه، لماذا لم ينتظرها إلى أن تنضج؟ لماذا قطفها باكراً؟ وأودعها الغرفة الحجرية الباردة، زادت تقلّصات بطنها الشديدة حاولت مناداة أنثى واحدة فقط لتخبرها عمّا تفعله، ولكن لم يسمعها أحد، لم تأت امرأة واحدة تخبرها أنّها غدت امرأة قبل أوانها وعليّها التصرّف كامرأة راشدة لا كطفلة صغيرة.

نظرت إلى الأرجوحة فرأت رياح الخريف تلاعبها، خيّل إليها أنها هناك ومن ورائها قمر تأرجحها (أمي عاليا... لا توقفيها.. إلى الأعلى أرجوكِ) أغلقت النافذة وضمّت الجدار وكأنّها تهرب إليه من حقيقة ترفضها، واقع فرضوه عليها

بالقسوة، شاءت ذلك أم أبت لن يغيّر بكاءها شيء ولن يهبط المستحيل إليها، عبراتها ستنسكب شلّالاً في كل مرّة ينادونها بجدايل كي تقابل أميرهم في غرفة نومه، ولأنه ثمل كعادته لن تنفعها عبراتها ولن تشفع لها ، سيقوم بمهامه وكأنّها موكلة إليه من أحدٍ ما، وبعد أن ينهي ما عليه فعله يأمرها بالاستحمام والخلود إلى النوم دون التفوّه بحرفٍ واحد.

* * * * * * *

أسندت رأسها على الكرسي

وحوّطته بكلتا يديها وكأنّها تحاول محو شيء ما، وكأنّ هناك شيئاً ما في ذاكرتها لا تريده ينغّص عليها واقعها، تريد نسيانه بشتّى الطرق والوسائل. أغمضت عينيها تحاول استجماع ما قد حدث معها هناك، ثم عادت إلى طبيعتها ولكنّها في شتات بين عقلها وذكرياتها، ثم قال بصوت أشبه بالهمس:

– تعاليم داعش وأوامرهم كانت تمارس على الرعيّة فقط، كلّ ما علّمونا إياه في المدرسة لم أجده عند قادتهم، الرؤوس المقطوعة في الساحة الكبيرة كانت لشبّان قيل أنهم يمارسون الزنى ويشربون الخمر، ولكنّ قادتهم يفعلون ذلك في وضح النهار وأمام أعين الجميع، كانت حفلاتهم تقام في السرّ والعلن مع أشهر الراقصات

الباكستانيّات، موائدهم مليئة بالخمور وبيوتهم كانت بيوت دعارة، أما عامة الشعب يمارس عليهم الحدّ في هذه الأمور.

خرجت آه من أعماق قلبها دمعت لها عيناي، أخذتها في أحضاني فبكت كثيراً، كانت بحاجة لهذا الحضن منذ زمن ولم يمنحها إياه أحد، صمت أنا كي ترتاح هي بعد أن تفرغ ما في جعبتها من نوبات بكاء أصابتها جرّاء ذكريات قاسية. تركتني وعادت تسند رأسها على الكرسي، مسحت دموعها بكم عباءتها، ثم قالت:

- ذكرياتي هناك جدّ موجعة، لم أستطع الحفاظ على نفسي كما أوصتني أمي، بل جعلتها لكلّ عابرٍ سبيل تطأ قدمه أرض داعش، لم أستطع الاعتناء بأبسط الأشياء التي أحبّها ولم تهبني الحياة ما أتمنّى، قيثارتي هناك تحمل

أسوء الألحان المميتة والقاسية، لوحاتي ليس فيها إحساس ولا مشاعر، فيها قلوب ميّتة وأجساد بالية، ذكرياتي تحطّمت على حدود الماضي فمنعتني من بناء السعادة، منعتني من الاستمرار في الحياة، كل ليلة أحسد تلك النعجة على ما حلّ بها فليتني كنت مكانها في تلك الليلة السوداء.

ثم عادت تروي بقلب ينفطر أسى...

* * * * * * *

هكذا بدأ الجزء الثاني من روايتها، الجزء الأكثر ألماً وعذاباً، في البداية لم تكن تعرف شيئاً ولكنّها تعلّمت في هذا الجزء الكثير ولكنها نسيت كيف تتعلّم الرفض، ربّما لأنها بين رجال يقابلون الرفض بالرجم أو الجلد أو قطع الرأس، كانوا دائماً يخوّفونها بذلك، حتّى باتت تخشى كل شيء، فذنب عصيان أميرهم فظيع جدّاً، تذهب إلى المطبخ في الطابق الأسفل لعلّها ترفّه عن نفسها فالآن سمحوا لها بمغادرة الغرفة والانتقال إلى باقي الغرف، والنزول إلى الحديقة، تعتقد أنّها إذا جلست مع الخادمات في المطبخ ستنسى ما حلّ بها ولكن حديثهم فظيع بمقدار فظاعة العيش هناك، يتحدّثون عن كيفية قطع الرؤوس وصمود أصحابها مع السيف المتآكل، وتتدحرج الرؤوس فيركض الصبية ليلعبوا بها ويتباهوا بأكثرها عدداً، تنظر إليهن وهنّ يروينّ لبعضهنّ تلك القصص ويفتحن هواتفهن ليشاهدن ذلك بالمقاطع

المحفوظة لديهم، في ذاكرتهم قبل هواتفهم، تهرب منهن وتلتزم غرفتها، تمشي وعقلها يفكّر في الهروب من هنا، كلّ ما حصلت عليه من أفكار كانت لطرق بدائية تنفيذها سيجعلها مقطعاً مصوّراً في هواتف الخادمات، لا يمكنها الهروب من هذا القصر البارد والمخيف، يحلّ الظلام عليها، تذهب إلى غرفته يأمرها بلهجة قاسية أن تخلع ثيابها وتأوي إليه، يعانقها ورائحة الموت تفوح منه، يحاول تهشيم أضلاعها في كلّ عناق يعانقها، يصبّ شهوته داخل رحمها الصغير ويتركها تعاني ككلّ مرّة تقلّصات بطنها الحادة، تنام القطة المذعورة بجانب النمر الضخم، تنظر إلى عينيه المغمضتين وتحاول التنصّل من سريره والهروب إلى غرفتها، بات يأمرها بالمكوث هنا ليل نهار، يتقلّب في نومه تغمض عيناها خوفاً من افتضاح أمرها، كم اشتاقت إلى سريرها ووحدتها في تلك الغرفة، كم اشتاقت إلى تلك الليالي والأيام، بكى قلبها بشدّة

دعواتها ليل نهار أن تنضج وتثمر، لم تكن تفهم ما تعنيه والآن وقد فهمت صارت تأكل أصابعها حسرة وندماً لعدم استمتاعها بتلك الأيام. أحياناً نتمنّى زمناً يأتينا فنبكي على ما قد رحل منا دون علمنا ودون التلذذ بأيامه، نبكي لوعة مناشدتنا لله مراراً على الإسراع به، نعود لنبكي أن تمرّ تلك الأيّام وتتجاوزنا بقدر دعواتنا لها بتجاوزنا. كنّا نحسبها أيام شقاء ولكنها كانت الرخاء بعينه.

خمس سنين ووطن على تلك الحالة ولم يتغيّر شيء في حياتها، طالت جديلتاها وعادتا كما كانتا عليه، لكنّها لم تعد تضفرهما كما كانت، بل صارت تجعله مسترسلاً على كتفيها كما يحب ويعشق أميرها وعليها ارتداء العباءة والشال في حال خروجها من الغرفة.

تعلّمت كل شيء هنا من عادات النساء والتعاليم الإسلامية وفنون داعش القتالية، ولكن إلى الآن لم تتعلم

الرفض بل تعلّمت الخنوع، لكنّهم لم يستطيعوا تعليمها قسوة القلب أبداً.

في تلك الليلة الظلماء تأخّر أميرها عنها، كانت مستلقية على سريرها تنتظره ولكنه لم يعد إليها باكراً كعادته، تناهت إلى سمعها تكبيرات ضخمة لأعدادٍ كثيرة، ظنّت النصر قد جاء والفرج في دربه إليها، ستنضم إلى الصفوف الأخرى وستخبر الجميع عن أسرار داعش، لن تكتم خبراً، ولكن التكبيرات كانت لنصرٍ جديد كتب لهم، هاجموا القرى المجاورة وكما فعلوا في مدينتها فعلوا في تلك القرى، وعادت الرواية تروي نفسها من جديد وعادت الأحداث تتكرر، وعاد التاريخ يعيد نفسه دون أن يكتب في صفحاته حدثاً جديداً نادراً، استندت بجذعها على الجدار وتذكّرت الأرجوحة، كم سرير في هذه الليلة بقي فارغاً؟ كم أرجوحة ما زالت تعانق الرياح الصاخبة؟

تناهى إلى سمعها ضجيجٌ كثيفٌ في الخارج من نساء تبكين وأطفال يصرخون ورجال يصرخون عليهم بوحشيتهم المعتادة، لم يأت أميرها تلك الليلة إليها بل جاءتها خادمتان تطلبان منها ارتداء عباءتها فمن الآن القصر ليس قصرها والنعيم ليس نعيمها والأمير لم يعد سيّدها، فغرت فاهها والصدمة قد بانت عليها، حاولت أن تستفهم عن الأمر. صاحت في وجهها تلك الجارية التي تغار منها كثيراً لكونها محظيّة الأمير:

- كلّ ما في الأمر أنّه أبدلك بجارية أزيدية تفوقك جمالاً، فالأزيديين صاروا أسرى لنا وقد اختار أميرنا أجملهنّ فأبدلها بك. جاءه الكثير من النساء فما عادت له حاجة بك، وباعك بثمن بخس لرجلٍ مغربي... لا تكثري الكلام فهو في انتظارك في الأسفل.

ارتدت عباءتها صامتة لا تلوي على شيء فمن هي لترفض، نزلت إلى الأسفل مع الجاريات ولم تلمح أميرها أبداً، وتلاقت عند المدخل مع سيّدها الجديد، كان في الخمسين من عمره وهي في السادسة عشر من عمرها، أذعنت لطلب خادم القصر يأمرها أن تلملم حاجيّاتها على عجل فلا تدع سيّدها الجديد ينتظرها، صعدت إلى غرفتها مسرعة ورتبت أغراضها جميعها في حقيبة صغيرة وعادت على الفور وعبراتها تنسكب من عينيها ناراً على وجنتيها فتحرقها حرقاً وهو يختلسها بنظراته الحادة كالنسر، يطالعها من رأسها حتّى أخمص قدميها ويغمز بعينيه اليمنى لمملوكته، استطاعت الآن فهم شيء جديد فهي مهما مكثت هنا ستبقى جسداً فقط ولن ينظر إليها أحد غير ذلك، هي للمتعة خلقت وستبقى جارية تمنحهم المتعة ويمنحونها الألم، ركبت معه في سيّارته وانطلق يشق غبار الشتاء ويقتحم مطر يناير، وصلا إلى بيته، ارتجلا من

السيارة وفتح باب البيت الكبير، لم يكن بيتاً عاديّاً وكأن الأشباح تقيم فيه، كان مخيفاً، وبارداً ومظلماً، كبيراً ولكنّه كئيب، أمرها بالدخول وجلس على الكرسي الكبير بجانب الموقدة، كانت مطفأة وكأنها منذ عقد من الزمن لم تشتغل فيها النار أبداً، أطواره غريبة وصمته مخيف، ينظر إلى أشياء لا تراها ويبتسم لها وكأن وطن ليست معه في الغرفة، تجاهلها ككرسي جديد اشتراه، وبعد ساعة على بقائها معه في غرفة واحدة أمرها بالذهاب إلى غرفة النوم كي تنام وتستريح، طاب خاطرها لهذه الكلمة فهذا أوّل شخص يطلب راحتها، صعدت إلى غرفة النوم في الأعلى خلعت عباءتها وشالها ونامت من فرط تعبها، عاد إليها بعد ساعة خلع عنها ثيابها وحمل سوطه ضربها على ظهرها ضربة آلمتها كثيراً فصرخت واستيقظت مذعورة وبدأ يضحك عليها بهستيريا معقّدة وكأنّه هارب من مشفى للمجانين، للأسف هذه المرّة وقعت في

شباك رجلٍ ساديّ، يعشق تعذيب الطرف الآخر ويتلذذ بعذابه، كانت متعته عن طريق تعذيبها واغتصابها في كلّ الأوقات، يقوم بوخز جسدها بالإبر ويستمتع حين يراها تصرخ وتبكي، يقوم بعضّها بقوّة من عدّة أماكن في جسدها، يجلدها بالسوط ويضحك، يشتمها شتائم بذيئة، كانت تبكي ليل نهار ولم يرأف بها بل كان يستمتع بعويلها فيصب شيطانه الوحشي عليها، لم يسمح لها بالخروج من البيت بتاتاً، هي الآن مملوكته وله كلّ الحق فيها، كان يدخّن على السرير ويطفئ السيجارة في جسدها الرقيق، تطلب منه راجية ألّا يعيدها ستفعل كل ما يطلب منها ولكنه كان يضحك بصوت صاخب ويعاود الكرة مرات ومرّات.

تمنّت أن تختفي من هنا، فهنا مسحت تضاريسها وهنا العذاب فاق كلّ التوقعات، لن تسامح عزيز وقمر لأنهما لم يستعيداها إلى الآن، لن تسامح أميرها على طرده لها وبيعها

لهذا المجنون. عادت تتمنى أيام القصر الماجنة والراقصات الباكستانيات وطاولات الخمور والسرير الكبير، ليتها تستطيع الهروب من هنا ولكن هذا هو المستحيل بعينه، سنتان هنا في هذا المنزل عانت من العذاب مالم يتحمله إنسان قط، سنتان تجرّعت فيهما الحنظل حتّى تقيأت المرار والعذاب، بكت كثيراً فيهما ولم يخترق بكاءها أيّ جدار، كانت حبيسة بيت الأشباح وكأنّه جان وليس إنسان، شيطان هو بهيئة إنسان. لم تشتك سوى لخالقها أن يرفع عنها الظلم والبغي، ماذا فعلت بحق الإله ليحصل لها ما حصل؟ ليتها لم تولد هنا... ليتها ما كانت هنا. ضجر منها إذ وجدها لم تعد تعاني جحيمه كما كانت من قبل وكأنّها اعتادت الألم حتى أصبح جزءاً منها، صارت تتلذذ بالألم مثله، تعاني ولا تتألم، تشتكي لبارئها دون أن تتكلّم.

جاءها في صباح يوليو يأمرها بارتداء العباءة والنزول إلى الأسفل سريعاً، فعلت ذلك بسرعة كبيرة فهي أضحت سريعة في إنجاز كل ما يطلب منها، لأن الجميع يأمرها بالإسراع، في أقل من دقيقتين كانت في الأسفل، وجدت رجلاً فيها مع سيّدها، كان بديناً جدّاً، ذو أربعون عاماً ونيف، قدّمها سيدها القديم لسيّدها الجديد فوحده الآن مالكها وعليها تجهيز نفسها والذهاب معه على الفور فهو الآن ليس بحاجة لامرأة لم تعد تتألّم.

* * * * * * *

وقفت وطن تبحث

عن مفردات تنطقها، كلمات تردّ لها روحها التي انطفأت هناك، عادت تستند إلى الشجرة وكأنّها قوّتها، مشت ومشيت خلفها صامتة ومن خلفنا اجتمعت أحزان الدنيا ، دموعها كانت تنهمر على خديها فتسقط في قلبي لتحرقه، آلمني ما حلّ بها وآلمني أكثر أنّها ليست الوحيدة التي تعاني هناك، صرخت في انهيار تام وهي تخبّأ وجهها في كلتا يديها وتنتحب:

- تهالك عمري هناك وأنا أبحث عن وطنٍ يلملم جراحي، كان الوطن في مأتم كبير، ساحة عزاءٍ كبيرةٍ، فأنّى له أن يدرك مصابي، جرحي بسيط جدّاً أمام جراح الوطن، لم أجد مأوى صغير يقيني عذابهم، كانت المدينة كلّها لهم، ولهم في كلّ حارة عين ورقيب، أترين الشجر هنا؟

نظرنا معاً إلى شجر الحديقة الأخضر ثم أردفت بعد أن كفكفت آخر دمعة قد سقطت:

- كتلك الأشجار التي تحلم بالاستلقاء كذلك كان الأمر معقّداً بالنسبة لي، أحلامي كانت هي مكاني الآمن وملاذي من بطشهم ومع ذلك كانت تزعجهم تلك الأحلام، ويهرولون لحذفها من خيالي.

سكتت وعادت إلى مقعدٍ آخر لتجلس عليه وتكمل قصة أحزانها:

- حظّي المتعثر لا يفارقني بتاتاً، فكلّما أجد في دربي منفذاً للسعادة أتعثّر بحجارة الماضي وعذابه، حتّى درب النسيان قد أغلق منافذه في وجهي

- ولم أجد سوى ذكريات لا أرغبها تنغّص عليّ حياتي الجديدة.

صمتت في كلّ مرة تحاول استرجاع ذكرى ما، ثم ابتلعت لعابها بصعوبة وبدأت تروي ما حدث...

* * * * * * *

سارت خلف سيّدها الجديد

تمشي دون أن تشتكي تبكي بصمت عذابها لأنّ التعبير عن المشاعر ممنوع هناك، تعلّمت الكثير ولكن لم تتعلم مغادرة مكان لا ترغبه، الكون كلّه لا يسعها، لا البكاء يجدي نفعاً هناك ولا الأحزان حتى، قلق البداية كان أصدق لحظة لأنها اللحظة الأصعب والأقسى، استنزفت الدموع كلّ طاقتها وشحّ مجرى الدمع في عينيها، هي تدرك أنّ جلّادها الجديد لن يلحظ دموعها ولن يفهمها، لن يلاحظ التفاصيل التي تبكيها، لن يفهم صمتها ونوبات حزنها، لن يفهمها، كادت أن تقع على الأرض بعد تعثّرها بحجرٍ صغيرٍ فصاح بها صوت أرعبها واهتزّت ركبتيها، مشت وترنّحت كثملٍ لم يصحُ من سكرته بعد، وخفقات قلبها في اضطراب شديد حتى ظنّته سيكسر قفصه ويخرج منه. كانت تشعر أنّ لديها أجنحة

ولكنها في أعماق المحيط تعيش، ومع أنّهم قصّوا جناحيها باكراً إلّا أنها مجرّد أضغاث أوهام.

وصلت إلى بيته الصغير، دخلت وراءه وأغلقت الباب خلفها قبل أن يأمرها بذلك، فعلت ذلك وكأنّها حفظت الدروس غيباً واليوم تريد أن تراجع ما حفظت، أدار وجهه إليها واقترب منها، لم تبتعد لأنها تدرك أنّها مهما ابتعدت لن تبتعد أكثر من مترٍ واحد، وكذلك لن ترفض لأنّ الرفض ليس له حلّ أبداً، ستذعن ككل مرّة وستسلّمه جسدها كآلة غسيل لا تعترض، سيحتلّ جسدها ويعتبرها إمارة تابعة له، سيكبّر في كلّ مرّة يقترب منها، سيصفها بالحوريّة وبأنّها ستكون خادمة لسريره، سيضمّها إلى صدره لتسمع نبضات قلبه الصارخة بالموت والدمار، لن يطلب منها خلع ثيابها، سيقوم بتلك المهمة ويتراءى له تشوّهات جسدها من ندوب وقروح وحروق، لن يسألها فهو يدرك أنّها كانت هناك تحت إمرة شخص

وحشي ساديّ لذلك باعها بثمنٍ زهيد جدّاً، ولكنّه لن ينام معها سريعاً سيجالسها ويخبرها كلّ شيء عن أسرار دولته العظيمة، ستكون له صديقة أكثر من كونها جارية إذ إنّه وحيد دون صديق.

وبدأت حياتها هنا كزوجةٍ دون إرث شرعي ودون كتابٍ رسمي، فقط بضع تكبيرات على رأسها وأعلنها زوجة له في السرّ والعلن، عليها أن تقوم الآن بواجبها كزوجة وجارية دون العصيان حتّى لا تتعرّض لعقوبة الجلد بتهمة عصيان أوامر الزوج.

كانت مهمّة زوجها تجنيد الصغار في دولة "داعش"، كل صباحٍ عليه خوض معركة طويلة معهم، فينزع عقلهم القديم ويستبدله بعقل تابعٍ لهم، يفعل ذلك بالتهديد والوعيد حيناً وبالمكافأة أحياناً أخرى.

كان يلعب بالنقود بكلتا يديه ومع ذلك أثاث بيته متواضعٌ جدّاً، وصفته وطن بالبخيل الجبان بسبب هيئته الرثّة وثيابه البالية وبندقية الصيد القديمة التي يحملها، التي سرقها من مخزن الأسلحة.

يخرج كلّ صباح... يجتمع بصبيان الحيّ ويخبرهم عن هذه الدولة والتي ستكبر بسواعدهم، يبدأ الاجتماع بسبع تكبيرات بأصوات مرتفعة وينتهي بدعواتٍ لا حصر لها للمجاهدين ولدولتهم المزعومة، يرحل كلّ طفلٍ إلى عائلته يخبرها بما سمعه، ويحاول تطبيق ما تعلّمه على عائلته، يخبر الأطفال ذويّهم عن عقوبة تارك الصلاة وشتم الذات الإلهيّة وشارب الخمر والمخدّرات والزنا، تعددت أساليب الإعدامات هناك والموت واحد. وتعددت أساليب التعذيب بقلوب لا تعرف الرحمة ولا الرأفة.

يأتيها كلّ مساء حين يأوي إلى سريره ويخبرها بأعداد الرؤوس التي اجتثّوها وما أسبابها، أصبحت المدينة في الآونة الأخيرة تتشح بالسواد وساحتها الكبيرة لم تفرغ من الأجساد الخالية من الرؤوس والمعلّقة بالسلاسل الحديدية، اتهامات كثيرة طالتهم وإعدامات دون أسباب منطقيّة.

أمرها بجلب حاجيات البيت فهو مشغول جدّاً ليس باستطاعته الذهاب إلى السوق، ولكن عليها كلّ صباح أن تمرّ من الساحة وهذا ما كانت تخشاه وطن، سترى رغماً عنها ما ظلّت بعيدة عنه أربعة عشر سنة، لم تعترض فلا يحقّ لها ذلك، أومأت برأسها علامة القبول، وسلّمته جسدها ككلّ ليلة ظلماء.

غادر في الصباح على عجلٍ ليلحق بالصبية الصغار قبل هروبهم من دروسه الكثيفة إلى شوارع المدينة، نظفت البيت وارتدت عباءتها، خرجت إلى السوق لتبتاع القليل من

الخضار، هذه أوّل مرّة تخرج إلى السوق، هي تعرف أنّه على مقربة من الساحة، ولكنّها لا تعرف موقعه البتّة، سألت النسوة في الطريق وكلّ واحدة تدلّها إلى اتجاه معيّن، أصوات القذائف هذا الصباح كثيرة جدّاً قادمة من شرق المدينة، كلّما سقطت واحدة سقط قلب وطنٍ معها، فلوقوعها هيبة كبيرة يهتزّ لها كل إنسان، استنفار كامل لجيش داعش على جميع جبهات القتال وكأنّها تنذر بحرب وشيكة الحدوث، استبشرت أملاً لذلك وتمنّت أن تباد هذه الدولة وتستعيد حريّتها، الساحة اليوم فارغة من الأجساد المقطعة، حمدت خالقها لأنّها وصلت باكراً قبل تنفيذ أحكام الإعدام، وضعت يدها على قلبها وبدأت تمشي بجانب الجدران وكأنّها تخاف من إعدام يوشك أن يقع. هناك على مقربة من الساحة وعلى الرصيف المحاذي لها جلس الباعة على الرصيف يعرضون بضاعتهم وينادون بأصوات مرتفعة، وقفت تائهة تبحث عن شيء

تبتاعه، كان هناك الخضار والفواكه واللحوم والأجبان والألبان، دارت بها الدنيا فهذه أول مرة تقوم بذلك وليست معتادة على المجيء هنا، ولكنّها حتماً ستعتاد، وبعد تفكير عميق اشترت بطاطس وطماطم بـ١٠٠٠ ليرة، وعادت إلى البيت فرحة بانتهاء مهمّتها سريعاً، كانت الساحة تجهّز لإعدام جديد، ركضت قبل أن ترى وجه الضحيّة، طهت البطاطا كما تعلّمت من خادمات القصر حين كنّ يتكلّمن عن الإعدامات المتكررة، انتهت من ذلك سريعاً وجهّزت الطاولة منتظرة قدومه إلى البيت. عمدت إلى تجهيز كلّ شيء كي تحظى برضاه.

تأخّر عن موعد الغداء، لكنّه عاد في الليل متعباً مهموماً، وجد المائدة جاهزة تنتظره، لكن عليها إعادة تسخينه من جديد، سألها بعد أن عاين أصناف الطعام:

- ذهبتي إلى السوق لوحدك؟

ابتسمت له واقتربت منه في أمل كسب ودّه وأجابت:

- نعم
- وهل عرفتي الطريق لوحدك؟

عادت الابتسامة لترتسم على شفاهها وكأنّها سعيدة لأنها أضحت في الثامنة عشر من عمرها وبدأت ترتاد السوق وتبتاع ما يحلو لها.

- لم أعرفه في البداية ولكن سألت النسوة الجالسات أمام بيوتهنّ.

أبعدها عنه وهو قاطب الجبين مع كلّ الابتسامات التي رسمتها على وجهها لم تفلح بكسب ودّه ولم تنفرج ابتسامة واحدة على شفتيه.

- وماذا ابتعت؟
- بطاطس وطماطم.
- فقط؟ وما ثمنهما؟
- ألف ليرة.

قالتها كطفلة أخذت الآن فرحة العيد من والديها، اشتعل الجمر في مقلتيه وازداد حدّة وغضباً وصاح في وجهها كالثور الهائج:

- ألف ماذا؟ ألف ليرة مقابل بطاطس وطماطم، اللعنة عليكٍ...أنت بذلك تجرينني للإفلاس

عادت بضع خطوات إلى الوراء لعلّها تتقي شرّه هامسة في قلبها أن لا ذنب لها في سعرها فالبائع أخبرها بذلك. جنّ جنونه أكثر ركض إلى الجدار وسحب السوط المعلّق وبدأ بضربها دون رحمة وكأنّها عدوّته قبل أن تكون جاريته، تكوّرت على نفسها في زاوية الغرفة وكأنّها تحاول الاختباء داخل الجدار الأصم، صاحت وصرخت وخبّأت وجهها بكلتا يديها تناشده أن يتوقّف، كانت تتأوّه من أعماق قلبها ولكنها لم تنفذ إلى قلبه ولم تصل إلى ضميره، كانت تستغيث وتطلب منه العفو والغفران فلن تكررها مرّة أخرى، لم يعد لها طاقة بتحمّل المزيد من السياط، جلدها كثيراً حتّى أرهقه التعب وأخذ منه ما أخذه، مسح العرق المنسكب على وجهه بكم قميصه

ورمى السوط على وجهها وغادر البيت غاضباً، أغلق الباب بقوّة حتى كادت جدران البيت تسقط، اقشعرّ جسدها لصوت إغلاق الباب، تركها تستحمّ بعبراتها أثقل الهم كاهلها، تركها بعد انتهاء مهمّته الداعشية وخرج ليأكل ما لذّ له وطاب من أطايب اللحوم والفواكه، غادرها وهي ما زالت تستحم بشقاء وعذاب هو سببه، ترك آثار سوطه على جسدها الرقيق، أضاف لندوب جسدها ندوب جديدة، مرّت الساعات ولم تستطع الوقوف فلسعات السوط ما زالت تحرقها وتؤلمها، تنهش في جسدها وتدميه، تكوّرت على ذاتها أكثر وكأنّها تحمي ذاتها من شرٍّ يقترب منها، وكأنها تحمي نفسها بنفسها، بكت حتى تورّم جفناها وأحرقتها عيناها، تمنّت الموت كثيراً، تمنّت لو أنّها لم تخلق في هذا الوطن.

بدأت كل يوم تخرج من البيت وتتجه إلى السوق مرغمة تبتاع ما تؤمر به فقط، تناشد الباعة أن يخفضوا لها السعر،

تبكي هذا وتستنجد ذاك والكل يطردها من أمام بضاعته، تمرّ على كلّ الباعة وتقف تسأل عن الأسعار تبقى هكذا إلى غروب الشمس حتّى يشفق عليها أحدهم، تخبره باكية بلسع السياط على جسدها وأنها لا تقو على تحمل المزيد، يرأف بحالها ذاك العجوز ويعطيها ما تشاء لقاء أجرٍ زهيد، تدعو له كثيراً وتنطلق سعيدة إلى وكر الثعالب.

مضى شهر على ذهابها إلى هناك وشراء ما تحتاجه من العجوز ولكنها في هذا اليوم البارد من شهر مارس لم تجده، سألت عنه فأخبروها بموته وحيداً في بيته. جلست على الرصيف تبكيه وتبكي حظّها وأصوات الباعة تتناهى إلى سمعها وكأنها أصداء، وجدت نفسها وحيدة على رصيف الحياة، لا أحد يسأل عنها في هذه المدينة الكبيرة، ولا أحد يهمّه دموعها هنا، تركت ذاتها تستريح من عبئ الحياة ونظرت إلى الباعة وهم يبتسمون في ظلّ الحرب، وجدت من

بينهم امرأة جالسة على الأرض تبيع البيض في سلّة من القشّ، نظرت إليها بتمعّن وعادت بها الدنيا أربعة عشرة سنة وهي في الخامسة من عمرها والأرجوحة تقفز في الهواء، وقفت على قدميها وسارت إليها حتى وقفت مقابلتها، نظرت إليها العجوز وقدّمت لها البيض كي تشتريه، أبعدت البيض ببطء عنها وجلست على ركبتيها عينيها في عيني العجوز تتأمّل تجاعيد الزمان على وجهها وكأنها تحكي عذاب أربعة عشر عاماً.

كيف لقمرٍ أن تنسى صغيرتها وهي ما زلت إلى الآن رافضة نسيانها. أحاطت بكفيّها وجه والدتها ونادتها بحنان بالغ:

– أمّاه

تلألأت الدموع في عيني قمر وهي تنظر إلى صغيرتها بعاطفة أم، بعاطفة لم ترها منذ تلك الحادثة.

- وطـــــــــن

أومأت الفتاة برأسها فرحة وعانقتها بقوّة، عانقت طفلتها الصغيرة بحنان أم وبكتا معاً، ظنّت وطن في ذلك أنّها وجدت من تدافع عنها وتحميها، أخيراً وجدت حصنها وملاذها من كلّ شرور. جلست وطن بجوار والدتها تحكي لها حكايتها. تبتسم تارة... وتبكي تارة... وتضحك تارة أخرى. تدمع عيناها لكلّ ذكرى شعرت فيها بالفقد والضياع، وتعاود الابتسام لكلّ ذكرى كانت تشعر فيها بالانتصار، لم يكن في حقيبة والدتها حكايات مثلها ففضّلت الصمت والاستماع لصغيرتها ويدها تشدّ على راحة الصغيرة في كلّ موقف كان يؤلم صغيرتها ولم

تكن هناك لتنجدها، وإن كانت هي لا تستطيع حماية نفسها حتّى تحمي صغيرتها.

انتهت وطن من الثرثرة ورجت والدتها أن تحدّثها عمّ حلّ بها هنا. صمتت طويلاً ثم قالت:

- احتجزنا سنوات في خدمة المقاتلين، نرضي رغباتهم ونشبع غرورهم ونطهو لهم، حتى كبرت وبعض النسوة فما عادت لهم بنا أيّ حاجة، رمونا في بيتٍ قديم أشبه ببيت الجدّة، لا يقترب منا أحد ولا يدخل بيتنا أحد. نخدم أنفسنا بأنفسنا ونبيع البيض من دجاج البيت.

ندمت وطن لاتهامها لها بخذلانها، أدركت الآن أنّها كانت تعاني مثلها وتتألم كألمها. تأخّر الوقت عليها كثيراً وحان وقت مغادرتها المكان، وقفت تودّع والدتها بقبلة حانية

على رأسها وعاهدتها أن تزورها كلّ يوم. أعطتها بعض النقود لتشتري ما تحتاجه فتعود بذلك إلى البيت تطهو له قبل أن يأتيها ويعوي عليها كالذئب المفترس.

*　*　*　*　*

نظرت إلى عيناي وأمسكت بيدي قائلة لي:

- هنا بدأت تولد سعادتي حين رأيتها، أتدرين أن تلتقي بجزءٍ من روحك بعد سنين من الضياع في محيط الآلام؟ كيف ستغدو حالك حينها؟ ماذا ستفعلين؟ وددت حينها لو أغوص في أعماق أعماقها علّها تحميني فلا أرى تلك الأعلام السوداء مرّة أخرى، أمّي كانت تخاف على سكان العالم من المرض خوفاً علي من العدوى.

سكتت وسكتت وتاه الكلام في زحمة الأوهام وعادت لتحكي عن غير والدتها:

- لم يعد لدي القدرة على المواجهة إذ خسرت أشياء كثيرة وشعرت بأن نقطة النهاية قد حانت وأنّه لم يعد هناك قوّة واحدة قادرة على دفعي للأمام، وها أنا ذا أقف على قدمي (ووقفت وطن) أتحمّل أكثر، وأواجه أكثر مع كلّ حجم الخسائر التي تلقيّتها تعلّمت الكثير وعرفت حجم قوّتي والأهم من كل ذلك عرفت أنّ الظروف مهما كانت صعبة وقاسية هناك درب سأنفذ منه إلى الحريّة والأمان.

جلست في مكانها وأكملت وهي ممسكة بيدي وكأنّها تخشى إفلاتهما، متّكئة على حزنها، شاردة في شيء لا أحد يدركه.

*   *   *   *   *   *

أحبّت الذهاب إلى

هناك، حيث روح أمها تقطن المكان، كلّ يوم تنظّف البيت على عجلٍ وتذهب إلى حيث التقتها تتسامران لساعات ثم تبتاع ما تؤمر به وتعود قبل عودته بساعة واحدة تطهو له الطعام وتجلس في انتظاره، كانت تسير بسرعة وعيناها إلى الأسفل، تخشى النظر إلى الساحة كي لا ترى تلك المشاهد، ومع ذلك كانت تقف كلّما صادفتها واحة من دماء ينفطر قلبها أسى وتتجاوزها بألم لتسرع قبل أن تستمع إلى صرخاتٍ أخرى لأناس لا تعرفهم، يحتلّ جسدهم الساحة، لم تكن تخيفها القذائف بقدر خوفها من الأعين المعاتبة لكلٍ مارٍ التي تراها في الرؤوس المنفردة، كان يخيّل إليها أن تلك الأعين تعاتب الجميع على صمتهم وخنوعهم، تكاثفت القذائف والكل هرب إلى جحره، وطارت الطائرات الحربية في أعلى السماء تدك معاقل داعش بوابلٍ من صواريخ ضخمة، نظرت إلى السماء

لعلّها تلمح طائرة واحدة ولكنّها لم ترَ سوى النيران الهائجة من بعض المباني، ودّعت والدتها على عجل وهربت من الانفجارات الكثيفة إلى البيت الصغير، وطن التي تمنّت الموت مراراً هنا ،ها هو الموت قد اقترب منها لكنها باتت تخشاه وتهرب منه، ربّما الآن هي بأمس الحاجة إلى حياتها فهناك من يرعبه فقدها، الآن لم تعد ترغب بالموت، هي ترغب بلقاء عزيز كما التقت بقمرها. أصوات انفجارات جدّ قويّة وصراخ النسوة يصدح من كلّ البيوت – يندبن ويبكين – وتكبيرات صاعقة لم تحدد مصدرها، انقطعت الكهرباء وشبكة الهاتف المحمولة أيضاً، أصبحت المدينة في انعزال شبه تامٍ عن ضواحيها وعن المدن الأخرى، شيء ما يحدث وراء الكواليس، حدث خطيرٌ قادم إلى المدينة السوداء، رفعت الرايات السوداء في كلّ مكان ونادى المنادي (حيّ على

الجهاد) وخرج الرجال من بيوتهم مدججين بالسلاح أما النسوة فقد اختبئن وهن يبكين ويندبن.

جاء الليل بطيئاً يستمع لنحيب الثكالى واليتامى، جلست وحدها في الزاوية تنتظره علّه يأتي ولكنّ في تلك الليلة كتبت لها الولادة من جديد دون أن تدري بذلك. لم يعد ولن يعود، نامت في مكانها تنتظره ولكنّها استيقظت على أصوات الانفجارات الكثيفة، أدركت أنه ما زال في الحرب لن يعود سريعاً، لم تخرج من البيت خشية أن يعود في أيّ وقت، ولكن ما حدث لم يكن متوقّعاً فقد مضى ليلتان - نهاران ومعنّفها لم يعد، مرّ الأسبوع ببطء قاتل ولم يعد. خرجت من البيت الصغير تستفسر، كان الصبية يلعبون ويمرحون استوقفت أحدهم لتسأله، أخبرها بموته منذ الساعة الأولى على إعلان الجهاد، كان الأطفال سعداء لموته، باستطاعتهم الآن المرح واللعب كما يحلو لهم دون منعهم. لم يكن يقاتل فهو جبان

كان هناك مختبئاً خلف الأشجار، باحث عن أسلحة قد قتل أصحابها، يفتّش جيوبهم ويسرق هواتفهم وكلّ ما يملكون من نقود ويهرول من جثّة إلى جثّة أخرى. هكذا كان يفعل عند كلّ قتالٍ، هكذا استطاع جمع ثروته النقدية.

عادت إلى البيت تخفي ضحكتها خلف نقابها وارتمت بثقلها على مقعده المحرّم عليها الجلوس عليه، ضحكت لموته، بكت لحياتها معه فإن كان ذاك قد شوهها جسدياً فهذا قد شوهها نفسياً، نهضت بسرعة واستلّت السوط من على الجدار كادت أن تقطّعه لكنه قاسٍ كصاحبه، هرعت إلى المطبخ بسرعة وجلبت سكين كبيرة وبدأت تقطّعه وهي تضحك بشكلٍ جنوني بأعلى صوتها حيناً وحيناً أخرى كانت تنتابها نوبة من البكاء لا تدري سببها. صبّت جام غضبها عليه ورمته أرضاً حين فرغت من تقطيعه وأفرغت شحنات الغضب التي تمتلكها. فتحت خزانته ورمت جميع الأوراق

النقدية على الأرض، رمتها في كلّ أرجاء الغرفة وعادت تضحك وتبكي بآن معاً حتّى يظنّ من يراها بأنّ بها مسّ من جان أو ما شابه، من شدّة تقتيره وبخله لم يبتع قفلاً لخزانته، ولحسن حظّها فقد آل كلّ ما يملك إليها. الأوراق النقدية التي أذاقها الويلات بسببها قد أضحت لها، وصاحبها الذي جلدها مراراً وتكراراً بسببها لن يعود مرّة أخرى إليها، عادت إلى طبيعتها وخبّأت جميع ما في الأرض من نقود في الخزانة وجلست تفكّر بطريقة تهرب منها دون أن يراها أحد.

* * * * * * *

نظرت إليّ وطن بعيون

ملؤها اللآلئ، ثم عادت تنظر إلى الأرض وقد أسكتها الوجع عن كلّ حديث أرادت إكماله، حملت من الأرض ورقة شجرة سقطت للتو من أعالي الشجرة، مسحت عنها الغبار بأصبعها، وبدأت تتأمّلها وكأنّها تهتم لأمرها؛ ثم قالت وهي تلعب بالورقة الصغيرة:

- كنت كورقة الشجر هذه أترنّح يميناً وشمالاً، الريح تأخذني حيثما تريد لا حيثما أريد، أردت أن أكون كطائر يطير حيث يشاء، لا كورقة صفراء ذابلة، أردت أشياء كثيرة ولكنّها كلّها ظلّت أمنيات صعب تحقيقها... أرغمونا على اتباع دينٍ يحلل قتلنا وجلدنا ورجمنا، أرغمونا على اتباع

دينٍ هم لا يتبعونه، دينٍ هم أنشأوه لوأدنا أجبروا الجميع لدخوله مهددين إيانا بالقتل حيناً وبالجلد حيناً أخرى، قادة داعش وقت الحرب كانت تختبئ تحت الأرض بسبعة طوابق، ترقصن النساء هناك بخلاخل تصدح بآلام النسوة المنتحبات رجالهن.

ترقصن الجاريات على جراح كلّ من فقد السند في ذلك الوقت، المشروبات الروحية ملأت الطاولات والسكر والعربدة لهم، ونحن لنا الآلام والعذاب والشقاء والموت. أرواحنا رخيصة هناك، ألعاب تلهو بها داعش كما أرادت وحين الانتهاء من اللعب تنزع الرأس عن اللعبة وترميها. الموت ثم الموت ثم الموت نهايتنا هناك ولا يمكن خروجنا من تلك المتاهة إلا بعد اجتياز عشرة قنّاصين موزّعين على حدود المدينة، إن لم نقتل هنا، سنقتل هناك بقناصة أحدهم ولكنّنا

حينها سنكون أبطالاً بنظر البعض ومجانين بنظر البعض الآخر وإرهابيون بنظر البعض أيضاً. كان عليّ حينها أن أقاسي لأبقى حرّة طليقة دون قيودهم، عليّ أن أتحمّل كل شيء مقابل التخلص من هيمنتهم، سأكون وحيدة وسيتملّكني الخوف ولكن في النهاية سأمتلك نفسي ولكني لا أستطيع الهروب من السجن الكبير، نعم كانت مدينتنا سجن كبير لنا. أتفهمين يا سنا؟ أتفهمين ذلك؟

أومأت برأسي دون مقاطعتها، أرجعت رأسها إلى الخلف وخبأته بيديها وهمست:

- في سجن كبير كنّا.

لم تعد الحافة مخيفة لها فقد سقطت منها مراراً وتكراراً واعتادت على الأمر فلماذا تضعف عند كلّ ذكرى، بدا عليها

الإرهاق وكأنّها كالسماء تحمل على ظهرها سبع سماوات. بلحظة شعرت أن الكون أضيق من أن يتسع تأوّهاتها. حياتها هناك معركة طويلة بين الأسر والحريّة وحياتها هنا معركة أكبر لا تدر إن كانت ستنتصر عليها أم لا.

رمت الورقة من يدها وطارت بها الريح بعيداً وكأنّها تستعيد شيئاً منها سرق للتوّ. ثم أكملت آلامها بسعادة وارتياح..

* * * * * * *

لا أعرف كيف أصف

تضرر روحها هناك، شيء ما تعطّل داخلها فالهشاشة تأكل قلبها وروحها، لن يصدّق أحد حين يراها بأن الحروب تقام في داخلها منذ زمن وأنّ بصدرها قلاع انهارت بأكملها وما زالت إلى الآن واقفة على قدميها تبحث عن مقعد في الحياة تستريح عليه.

فكرة الهروب من أكبر المستحيلات، أنت أمام خيارين، إمّا الحياة هنا كما أرادوها لك هم وكتبوها بدمك وإمّا الموت على أرضهم وروحك تعانق السماء باحثاً عن رأسك بين الرؤوس، تحاول السفر إلى الصحراء بحثاً عن قبر يضمّك، حتّى المقابر الجماعية ما عادت تتسع لك، الجسد في مكانٍ تنهشه الكلاب الشاردة والرأس في مكان آخر، ربّما تدحرج تحت سيّارة، وربّما سقط في حفرة الصرف الصحّي.

- لن تجازف بحياتها فالآن هي من تملك نفسها وهذه سعادتها الجديدة، سعيدة بذلك قبل سعادتها بتلك الأوراق، ولن تثق بأحد فالأعين كثيرة في مدينتها وكلّها تصل إلى قادة داعش.

لمعت الفكرة في رأسها واستضاء الكون بنوره وفتح لها الدروب المضيئة، زرعت الفكرة في عقلها أثمرت سريعاً وقطفتها على الفور فلا مجال للتلكؤ، عليها التجهيز لكلّ شيء على الفور قبل أن يحدث طارئ ما وتصبح جارية لأحدهم، فالآن هي تمتلك ذاتها، هيّ حرّة طليقة ولن تعود عرّاء مرّة أخرى لأحدهم.

لن تدعهم يدخلوها مرّة أخرى معارك قاسية لا ترغبها، لن تفرّقها الطرق عن ذاتها مهما خانتها الظنون وألحقت بها المكائد ستنجو من كلّ شيء.

أحضرت حقيبة كبيرة كانت وسخة قد اجتمع عليها الغبار فبنت العناكب بيوتاً بداخلها، لا تملك الوقت الكافي لغسلها فهي الآن أسيرة الوقت والوقت يملكها، مسحتها بمنديله ونظفتها بالسرعة التي أرادتها. وضعت بداخلها كل ما تملك الخزانة من نقود وفوقها صفّت ملابسها بطريقة أنيقة. كي لا يشكّ أحد بأمرها. جهزتها ووضعتها بجانبها، غداً في الخامسة صباحاً ستنطلق ولن يراها أحد. فقد آن لروحها أن تزهر ياسميناً وريحاناً. ونامت كأنها إكليل من الورود، ببراءة وأمل كندى الورود، كريش الطيور.

جاء الصباح كما أرادته ولكنّ جاء متأخّرا كثيراً عنها، فالأرق قد نافس النوم وانتصر ؛جلس بجانبها يحدّثها عن كل الأفكار السلبية التي يمكن أن تعترضها عند إتمام مهمّة هروبها من هذا الحي العفن. كاد قلبها يموت من كثرة الأفكار التي راودتها بطعم الحنظل والعلقم. جاءها الصباح يحثّها

على النهوض من كبوتها. هرعت بسرعة إلى الحمام غسلت وجهها ولبست ثيابها، حملت الحقيبة وخرجت واثقة من نفسها خائفة من شرٍ يطاردها تبتهل إلى الله أن ييسّر أمرها. مشت في الحارات القديمة على ضوء المشاعل الصفراء والقمر يسير معها ويناجيها، يحميها ويخبّئها عن أعين داعش. أصوات الكلاب الضالّة تأتيها من الساحة الكبيرة. خافت من افتضاح أمرها، خافت أن تكون فريسة كلب لا يعرف الرحمة مثل أصحاب المدينة التي يعيشها، صبرت كثيراً أيعقل بعد نجاتها من يد داعش أن تقع فريسة لكلب شارد؟

وصلت إلى الحارة القديمة حيث البيوت متراصة على بعضها وحيث الدفء والأمان يعانقها، كانت تعرف العنوان جيّداً فقد أعطتها إياه حين كانت تزورها في السوق. المنزل يتوسّط الحارة، كبير للغاية ولكنّه قديم أيضاً، حتّى يخيّل إليك وأنت تجلس بداخله بأنه سينهار في لحظة ما. بصدفة

من القدر حينما يكون الموت عنك لاهياً وعلى فمك شبه ابتسامات حزينة للغاية.

فتحت البوّابة الكبيرة ودخلت إلى البيت، كانت البوابة تحكي قروناً من الحياة، فهي لم تغلق يوماً واحداً، بل تبقى لكلّ عابر سبيل أراد الراحة في هذا البيت. دلفت إلى داخله فرأت عشرات الغرف على الجانبين، نظرت إلى الأعلى فوجدت عشرات الغرف أيضاً على السطح تعانق شمس الصباح. لم تعرف في أيّ غرفة تعيش والدتها، هذا البيت الكبير الذي يحوي بداخله خمسين عجوزاً رمتهم الأقدار هنا، لا معيل ولا زائر لهم. جلست على حافة حوض شجرة النارنج والحقيبة بجانبها، تنتظر استيقاظ إحداهن كي تدلّها على غرفة والدتها. نامت من فرط تعبها وارتمت تحتضن شجرة النارنج، وكأنها أدركت الآن أنّها بأمان فلن يجرؤ أحد على سرقتها من أمانها. استيقظت على تجمهر النسوة قبالتها يتحدّثن عن

نومها الهادئ ولا يعرفون كم خريفاً مرّ بداخلها وما زالت تزهر، لا يعلمون الانكسارات والتشتت والفوضى والمعارك الطاحنة التي خاضتها. نظرت إليهن فرأت يد والدتها تربت على شعرها، عانقتها وبكت خائفة من خيبة قاسية تطفئ نضارتها، عانقتها بقوّة وكأنّها تريد الاحتماء بها من هذه المدينة الكبيرة.

مدينتها مظلمة اليوم وكلّ يوم، أسوأ ما قد يعيشه الإنسان حين يكون وطنه شرّ له بدلاً من أن يكون بيته الآمن. وكانت مدينتها تضجّ بالشرور والآثام كزوجة أب لا تعرف الرحمة، إلى أين تهرب الصغيرة وطن وكل الدروب تصل إلى أعدائها؟ كم تمنّت لو تجد في هذه البقعة درباً واحداً فقط يحررها مما هي فيه.

أخذتها إلى غرفتها كي تستريح من ثقل الليالي، وحملت عنها الحقيبة، وضعتها في خزانة كبيرة وجلستا على السرير،

وطن تقص ما حدث لها وقمر تصغي. انتهت من الحديث الطويل وفجأة تجمّعت النار في عينيها وانسكبت عبرات أحرقت مقلتيها، أخفضت رأسها كي لا تلمح والدتها عبراتها ولكن قمر شعرت بدموع وطن تهبط على قلبها فتبكيه..

وقالت وطن:

- في الماضي البعيد وتحديداً قبل خمسة عشرة سنة، قلتِ جملة لي لم تفارقني إلى الآن، قلتيها قبل أن تغيبي عن ساحة ناظريّ (احمي نفسك قبل حمايتك للوطن الكبير) كنت صغيرة للحد الذي لم أفهم مرادك ولم أعِ ما تعنيه بكلامك، كنت صغيرة طفلة في الثانية عشرة من عمري حين اغتالوا طفولتي وعجزت وقتها عن حماية نفسي، كنت في كلّ ليلة أتآكل من الداخل بينما أنا خائرة القوى خاضعة ذليلة لهم، كلماتك كانت

ترنّ في أذني كلّ ليلة أفتقد فيها القمر فأتذكر قمري أين هي الآن؟ أتذكر كلمات والدي الصاخبة بحب الوطن الكبير وحبّي (أسميتك وطن لتحمي الوطن الكبير). كنت استمع إلى شجاراكما وأهرب إلى أرجوحتي، لم يفهم والدي ما كنت تخبرينه كل يوم، أن أحمي نفسي أوّلاً فالوطن لرجاله وهم أولى بحمايته، وأنت لم ترغبي بالاستماع إليه.

– أمي... عجزت عن حماية نفسي.... فكيف أستطيع حماية الوطن الكبير... لا تقولي لي للوطن رجال تحميه، وإن لم يكن هناك رجال فنحن رجاله يا أمي، حاولوا اغتيال اسمي فمنعتهم من ذلك واستعدت منهم اسمي ونفسي فأنّى لهم اغتيال الوطن، لن أكون أمة بعد اليوم لأيّ كائنٍ كان، لم أخلق للعبودية خلقت كما أرادني عزيز أن أدافع عن بقايا الوطن. فيما مضى لم

أستطع تحرير الوطن لأنني كنت عاجزة عن تحرير نفسي، والآن وقد أصبحت حرّة سأفعل ما بوسعي لإنقاذه من موتٍ يتربّص به.

وضعت قمر يدها على فم وطن وأسكتتها وهي تبكي، ثم خرجت آه من صدرها مليئة بوجع السنين وقالت:

– لا تخبري إنساناً عن أحلامك يا صغيرتي فللجدران آذان تصغي وتعتقل وتقتل، فقدت والدك ولا أعرف إلى الآن إن كان يعيش مثلنا أم ابتلعته الأرض منذ زمن، أنت الآن قلبي الذي أحيا به، فلا تقتلي قلبي، أخاف عمراً يأتيني يخلو من بسمتك، فكيف أحارب ظلام الليالي من دونك، لا تفعلي أيّ شيء يجعلك تندمين.

أومأت وطن برأسها وهي تنظر إلى والدتها حملت يدها وقبّلتها.

ثمّة حرب في داخلها أكبر من مجازر داعش وحروبها، أكبر من حروب الوطن الكبير وانفجاراته الكثيرة، في حربها وحدها الجريحة، وهي التي تهرول لطلب النجدة ، وهي من رمى القذيفة، هي الجلّاد وهي الضحيّة. كانت مليئة بالثقوب إلّا أنها كانت تشعر دوماً بالثقل، ما بداخلها لم يتسرّب منها يوماً بل كان يثقلها على الدوام.

هنا في هذا البيت كانت حياتها مليئة بالروتين والفراغ، تقوم بخدمة العجائز دون مقابل، فقط بضع دعواتٍ تنالها منهن، توفّر لهن ما استطاعت من طعامٍ قبل موعد القذائف والصواريخ، تعود مسرعة إلى البيت قبل أن تغتالها قذيفة لا تعرف الرحمة.

تخرج كلّ صباحٍ مع والدتها تبتاع الخضار والخبز وحاجيّات المنزل، وتعود عند الظهيرة تعطي ما حصلت عليه للنسوة كي يجهزن الطعام وتجلس لوحدها تفكّر في حلّ يخرجها من هذه المدينة، فقد زاد كرهها بعد أن زاد تنكيل داعش بشعبها.

بدأ الروتين يأكل يومها ويسرق من ساعات هنائها، فكانت تهرب من البيت إلى الحارة تقف بجوار المنزل مستندة على البوابة الكبيرة تراقب المارة كما كانت تفعل نسوة حيّها وكانت تقوم بانتقادهن بشدّة حتى أصبحت اليوم امرأة مثل الجميع.

وقفت تنظر إلى الدرب الطويل، تبحث عيناها عن وهمٍ لا وجود له، اتكأت والدتها على الجدار خلفها ثم عانقتها من الخلف بحنان، أدارت وطن وجهها لتعرف من ورائها، حين رأت والدتها سلّمت نفسها لها وبكت عمرها المهدور هنا، بكت

مستقبلها الصاخب بالرؤوس المقطوعة والدماء الحمراء التي لوّنت عالمها المتّشح بالسواد وهمست لقمر:

- أريد أن أضيء... فقد تعبت من الإنطفاء، لا أريد لروحي أن تخمد أكثر من ذلك، أما آن لي أن أنير روحي الضعيفة، أشعر وكأنّي وهم سراب لا وجود لي، أنا ظلّ زائل يا أمي، لقد رأيتِ ندوب جسدي ولكن استحالة رؤيتك لندوب روحي، هناك طعنات سددت لي فقتلت كلّ ورود العمر بداخلي، لا أعرف لماذا أقتل نفسي بالقلق؟ أنا على كل حال سأموت في النهاية.

مسحت قمر عبرات وطن وأمسكتها من كفيها قائلة لها:

- لا تقولي ذلك... أنت حياة خالدة.. أنت التي ستعيدين الأمان والحب هنا، كوني قويّة فالوطن بحاجة للقوّة لا للنحيب على أيامٍ مضت واستبشري الخير بالأيّام القادمة، انتظارك لحياتك القادمة كلّ يوم على عتبة الألم ما هو إلّا هدر لسنوات عمرك القادمة.

دخلت قمر إلى البيت بعد أن أعطتها جرعة كبيرة من الطاقة الإيجابية واستطاعت رسم الابتسامة على وجهها الصغير. هبّت رياح مايو المجنونة المغلّفة بربيع يبتسم للجميع وبأزهار ناطقة بالأمل والحب، كادت قسوتها ترميها أرضاً إذ كانت شاردة في كلام والدتها ولم تستطع التمسّك بأيّ شيء، صرخت بعفوية فأمسك بها بخفّة ورشاقة. تراجعت عنه بسرعة ونظرت إليه ولأوّل مرة ترى في أرض داعش إنسان في عينيه قد اجتمع المرح والفرح معاً. ابتسم لها بعد

أن رآها خائفة منه. حين رأت ابتسامته شعرت بالأمان فبادلته ابتسامة فيها الحياء وبعض الخجل. خافت على نفسها من جدران الحي التي تسمعها كما قالت لها والدتها مع العلم أن الحارة فارغة من كل نفس، ولكنها خشيت على ذاتها من شرطة (الحسبة) ستعتقلها بتهمة الابتسام وإغراء رجل لا تعرفه، أرادت الدخول إلى البيت فاعترض طريقها حين أمسكها من تلابيب عباءتها قائلاً لها بصوتٍ فيه الحنان والأمان:

- لا تدعي أحد يقوم برسم خريطة حياتك، فهناك من لا يحترم الحدود، وهناك من يجتازها بحجة أنّه راسمها وله الحريّة في التصرّف بحدودها، لا تدعي أحداً يكتب لك روايتك، فهناك من لا يحترم قراراتك ويتحكّم بحياتك، هناك من يقتلك في بداية الرواية وهناك من يتلذذ بآلامك ويجعلك تعانين

الأمريّن، لا تدعيهم يعزفون على وتر أنغامك، لا تدعيهم يعزفون أنغاماً لا تودّين سماعها، هناك من يعزف لك لحن الألم ويأمرك بشكره وتقبيل يمناه، وهناك من يعزف لك أنغاماً متقطّعة تجلب لك الصداع والارتباك، لا تأسفي على أحدٍ مرّ من أمامك كعابر سبيل وانتهى أمره حين رحل، بل احزني وتأسّفي على ذاتك التي أضعتها في إرضاء من لا تعرفيه .

تركها ومضى إلى بيته، ظلّت تراقبه حتى دخل بيته وأغلق الباب وراءه، إذاً هذا هو الجدار الذي يسمع كل ما نقوله، كان يستمع لكلّ حرف صدر عن وطن ووالدتها، دخل بيته وخلّفها في مكانها، توقّف الزمان عندها وهي في دوّامة من أسئلة وأوهام قد حلّت بها، من هذا الذي يعرف عنها أكثر مما تعرف هي، يعرف ما يدور في خلدها وما كانت تفكّر به

مع والدتها، صدقت قمر في ذلك حين قالت للجدران آذان تسمع وتفهم.

دخلت غرفة الجدة وجلست على سريرها تجاعيد الزمن قد بانت عليها كثيراً، عمرها الآن قد قارب التسعين عامًا وما زالت إلى الآن تعرف جميع من في الحي وكأنها ما زالت تعيش في ذاك الزمن، أرادوا محو ذاكرتها ولكنّهم فوجئوا بذاكرتها الفولاذية، خافوا على تاريخهم من تدنيسه وكتابته، فهي الوحيدة التي تعرف تاريخهم وكيف جاءوا؟ وما سبب مجيئهم؟ أخرسوها هنا كي لا تنافس دولتهم. سألتها وطن عن هذا الشاب فأخبرتها باسمه (نمر) وهو أكثر رجال الحارة شهامة وقوّة. نظرت إليها الجدّة وقالت لها:

- السواد الذي تحت عينيك لعجوز مثلي.. لا تسبقي الزمان يا بنيّتي.

- لكن يا جدتي ما زلت في العشرين من عمري وروحي قد تجاوزت الثمانين عاماً، ما حدث معنا لم يحدث من قبل بتاتاً، لم يحدث لكم ولا حدث لأجيالٍ من بعدكم، نحن فقط من عانينا دون أن يسمعنا أحد أو يرثينا أحد، وكأنّ مدينتنا تحت الأرض السابعة لا تراها الأعين ولم تسمع بها الأذن.

- الله أقوى من كلّ هذا الشتات لنسلّمه أمرنا يا صغيرتي، ستزهر الأيام القادمة أحلاماً واعدة، استندي على نفسك وكأنّك أكثر الأشياء ثباتاً هنا، نحن موعودون بشيء يفوق المستحيل ويتخطّى حدود الواقع فلنصبر.

قبّلت يد الجدّة بعد أن انتهت من حديثها معها وخرجت إلى غرفتها ارتمت على سريرها، وبدأت الأفكار في عقلها تتصارع حديث قمر ثم نمر ثم الجدّة، توقّفت عند نمر عرفت

أنّه من خيرة شباب الحي، يساعد جميع من في البيت بكلّ ما يحتاجون إليه، سمع عن وطن الكثير من والدتها وجميع من معها في السكن، فتمنّى لقاءها مرّاتٍ ومرّات، وها هو يلتقيها الآن ويمطر عليها بوابل من نصائح ودّت وطن لو تستطيع تنفيذها، الكلام سهل ولكن يستحيل تنفيذه خاصة إن كنت تقطن في هذه المدينة، فهنا لا يوجد رأي ولا مشورة ولا رفضٍ لأيّ أمر، فقط نفّذ دون أن تعترض.

اعتادت على لقياه كلّ صباح ومساء، دون المبادرة بالكلام، كان دائم الخوف عليها من ذاته أوّلاً ومن شرطة (الحسبة) ثانياً ومن أهالي الحي ثالثاً، كان يخاف عليها من الوشاية بها ظلماً. فكلّما مرّ من جانبها بدلاً من إلقاء التحيّة عليها يتنهّد بصوتٍ عالٍ، فيهرب قلبها إليه ويمضي القلب مع القلب فيما الجسدان يتباعدان ويتباعدان ولا يلتقيان إلّا بعد ليلة ونهارٍ كامل.

سمحت لنفسها أن تعيش الحبّ معه، ولتمضي لمغامرة خطرة بإرادتها غير مجبرة على ذلك، هذه المرّة الأولى التي ستعشق فيها وستعطيه جسدها راضية برضاها كما اعتادت على ذلك، ولكن هذه المرّة الموضوع قد اختلف، هنا الحب سيّد الموقف وبطل حكايتهما، هذه المرّة هي مخيّرة وليست مسيّرة، ستهبه كلّ شيء لأنه دخل إلى فؤادها بإرادتها، هام بها رغم تعبه وقسوة حياته، رغم مرارة ما بداخله أبقاها في قلبه كدمشق الفيحاء كياسمينها وهو يتدلى من على أسوارها.

اختبرت معه جميع مشاعر الحب والغرام، ولكنّ شعور الخوف يباغتها على الدوام، خوفها من قتله إن عرفوا الأمر، حياتها ليست مهمة عندها بقدر ما تهمّها حياته، فهو من أشعل النور والبهجة في دربها ولأوّل مرّة تشعر بالأضواء تشتعل بداخلها والبهجة تعمّ روحها، ولأوّل مرّة أحسّت أن

بداخلها روحاً تتنفس العشق وقلباً ينبض بحبّ الحياة، قلبٌ عرف الحب أخيراً دون أن يكون آلة تضخّ الدماء لأنحاء الجسد فقط.

التقى بها في حارة ضيّقة وسحبها من عباءتها ناداها (وطن) وضمّها إلى صدره فأشبعها قبلات حانية، فرحت لمناداته باسمها ولم يكن كالجميع حين كانوا يسمعون الاسم يرتعدون وكأنّ بركاناً قد حلّ بهم. انتهى من تقبيلها وضمّ وجهها بكلتا يديه وهمس لها:

- أيا وطن... لا تبكي على الوطن الكبير، فقلبي هو وطنك الذي لن يخذلك بتاتاً، قلبي بيتك حين تشردين، ملجأك حين تهربين، مأواك حين تتعبين، سريرك حين تغفين، قبلتك حين تصلّين، أمانك حين تخافين.

- ولكن الوطن الكبير خذلني وأبقاني في سجنهم سنيناً. وأخاف أن تخذلني أنت كما فعل هو من قبلك ولم يحمي أبناءه.

- الوطن يا حبيبتي لم يخذلنا، نحن من خذلناه حين استنجدنا بالغريب وتركناه لوحده يحتضر، لم يكن الغريب أحنّ علينا من أرض الوطن، فأذاقنا ما أذاقنا ونحن خانعون له، ونضع اللوم على وطنٍ ما عاد لنا.

- الوطن لنا نحن، وسيبقى لنا، نحن أبناؤه البررة ولن نتركهم يعيثون فيه فساداً أكثر من ذلك. أتعرف أن أعظم أمنياتي أن أكمل عمراً خالياً من أيّ شعور، أتمنى ألا أشعر بشيء بعد الآن.

أمسكها من يدها وهرب بها إلى بيته، وهناك ضمّها كي تشعر برجفة الحبّ الأولى، كي يقنعها أن شعور الحبّ

لذيذ ليس كمثله شعور، وبالفعل شعرت معه بالحبّ لأوّل مرّة وشعرت بخفقان قلبها بشدّة جرّاء الحبّ والخوف معاً، جاءها الحبّ كما تمنّت ولكنه ممزوجاً بنكهة الخوف.

"الحب في مدينتنا محرّم وجرمٌ كبير نفعله".

كانت خائفة كثيراً فهو النمر وهي القطة الصغيرة، لم تمض ساعة على وجودها معه حتّى هربت منه وتركته خلفها يناديها أن تعود، هربت كي تبقيه لها مدى الحياة، كي لا يموت بسببها، كي يعيش وتراه الدهر بأكمله بجانبها.

وعند الباب وقفت وقالت له:

- ابتعد عني وكأنّك لا تعرفني، لن أخبر أحداً عنك لتكون حزني بيني وبين نفسي فقط، لتكون حبّي لوحدي وحنيني الدائم إليك.

صاح بها قبل أن تغيب:

- لا تغيبي كالشمس يا مجنونة، لنعش المغامرة على أمل الحب، فإن لم يكن لنا أزلية في الحب فلنجعل لحبنا أبدية وليخلّد بذكرانا.

- لم يكن حبنا أزلياً فكيف سيكون أبدياً، الحب ولد بإشارة من القدر، أوافقك في ذلك ولكنّه لن يموت، لماذا لا نحاول إبقاءه سراً خالداً بيننا؟ كنت أشعر بالضياع قبل مجيئك وحين أتيت كنت لي كل البيوت، وحدك من علّمني ماهيّة الحب وعاملتني بالتي هي أحسن حينما كنت غارقة بالتي هي أسوأ، انتشلتني من قاع الألم... فأرجوك لا تجرّني إلى قاع الخطيئة.

تركته غارقاً في جنونها وهدوئها ومزاجيتها وخوفها الدائم من كلّ شيء، أمّا هي هربت منه إلى البيت الكبير دلفت إلى غرفتها وارتمت على السرير تبكي ضياع حبّها منها، تبكي قسوة الأيام ومرارة العيش هنا، لعنت داعش ألف مرّة وكم تمنّت لو أنها لم تولد هنا، حنقت على الوطن الكبير كثيراً كيف لم يستعد مدينته الصغيرة إلى الآن، حسدت كلّ من يعيش هناك، فبإمكانهم أن يعيشوا الحب كما يريدونه. أحسّت بثقلٍ يجثم على صدرها. تركت غرفتها وذهبت إلى الجدة فداؤها عندها بكلامها اللطيف الخالي من منغّصات الحياة، جلست على سريرها تنظر إلى مسبحة الجدّة وهي تحركها بخفة، نظرت إلى تجاعيد السنين كيف ارتسمت على وجهها وهي تبتسم لحياة تائهة منها، تبتسم لزمن لن تكون هي فيه، مسحت الجدّة على رأس وطن وقالت لها بهدوء وطمأنينة:

- ما الذي أبكى طفلتنا الصغيرة؟

- لم أعد طفلة يا جدّتي، أنا الآن في العشرين من عمري، كبرت في الثانية عشر، عن أيّ طفلة تتحدّثين؟ كلّ شيء يفعلونه بسبع تكبيراتٍ محرّمة، يتزوّجون بأمرٍ من الرب، هم الذين في سرّهم يعصونه، بيوتهم مليئة بالنساء من كلّ حدب وصوب، طاولاتهم مليئة بشتّى أنواع الخمور، ونحن هنا كقمامة لا يرونها ولا يبصرونها، الحبّ عندنا محرّم وعندهم حلال، الزواج الحلال محرّم إلا بأمر منهم وفي بيوتهم شبكات كاملة للموبقات.

- أأحببته يا صغيرتي؟

- جميلُ هو كياسمينة نبتت في الوطن الكبير وامتدت فروعها إلى أحياء المدينة قاطبة، وحده من اختارني في زحمة الحياة بينما كنت مشلولة الفكر والإرادة، غصني

الأخضر "هو" الذي يبقيني وردة عطرة أمام جفاف هذه المدينة.

- وماذا بعد؟

- اليوم توجّست من حبّي له، كيف لي أن أهبه الحبّ دون أن أكون حلاله؟ خشيت على نفسي من حمل صبيّ في أحشائي لا يعترف بأبوته أحد، خشيت على نفسي أن أحمل المعصية في رحمي، خشيت على نفسي أن يقال عنها مومس، فهربت منه بعد أن كنت سأفعل ما سأندم عليه طيلة حياتي، سؤال حيّرني، لماذا أفعله في تلك البيوت خانعة راضية وهنا لا أستطيع فعله وأنا حرّة طليقة؟

- أنت كعزيزٍ يا وطنٌ لا تنجبين..

اهتزّت الأرض لسماع كلام الجدّة ودارت الغرفة بوطن عشرات المرّات، نظرت بحدة وغضب لتكمل الجدّة ما تفوّهت

به قبل ثوانٍ معدودة، والدها ينجب ولكنه تخريف عجائز وإلّا لما كانت وطن هنا، الجملة كلّها كانت خاطئة وهناك لغز عليها حلّه بالسرعة القصوى. لن تكون عيسى أو آدم فهي ليست قدّيسة أو نبيّة، بل هناك أب وأم، فمن هما؟

- لا تنظري إليّ على أنني المخطئة...عزيز لا ينجب...

قاطعتها على الفور.

- إذا كان عزيز ليس والدي فوالدي هو من أنجبني، ولكن من هو؟ ولماذا؟

- لا تقاطعيني ودعيني أكمل ما بدأت، أحبّت والدتك عزيز حبّاً جمّاً، كان لها كلّ ما أرادت، فهو الحياة

بنظرها، ولكن شاء القدر أن تتأخر في الإنجاب وبعد خمس سنوات بدأت العائلة تحرّض عزيز على الزواج بأخرى، خشيت قمر أن يتخلّى عنها عزيز وهي التي حاربت بنات الحيّ من أجله، خشيت إن تزوج بأخرى أن يهجرها وهذا ما كانت لتطيقه البتّة، تناحرت مع بنات الحيّ من أجله فلن تدعه لغيرها أبداً، ستثبت للجميع أنّ قمر قادرة على حمل عشرة صبيان في أحشائها بدل الواحد.

كان والدك دائم الترحال كثيراً يغيب شهراً بأكمله عن البيت وإن عاد يعود يوماً أو بضعة أيّام ثم يرحل، لذلك استطاعت قمر أن تفعل ما تريد في غيابه وتحمل في أحشائها ما أرادت وهو في غيابٍ عن كلّ أفعالها.

عاد إليها متعباً من سفرٍ بعيد، مثقلاً بهمومه، مرهق بالكاد يتنفّس، جلست بجانبه لتخبره بحملها لك وأنك في

الشهر الثالث في أحشائها، كانت تظنّك صبياً لم تكن تعرف أنك بنت، حملها والدك ودار بها من فرحته ناسياً تعب يومه، ومرّت أشهر الحمل خفيفة عليها وبدلال والدك لها لم يشعر أحد إلّا وقد أنجبتك، كانت جدّ راضية عمّا تفعله، ولم يتخلل الندم إلى ضميرها يوماً.

شعرت وطن بالغصّة تتسل إلى قلبها، جاءت مهمومة من أمرٍ ما فحمّلتها هموم لا طاقة لها بحملها. قالت وقد ابتلعت ريقها بصعوبة وحبست دمعتها اليتيمة:

- من أدراك بهذه القصّة؟

- عرفتها من والدتك بعد أن حلّفتها بإله الكون أن تخبرني من والدك لأنك لا تشبهينه بتاتاً، ومع ذلك كان عزيز يتفاخر بأنّك شبيهة به، أرادك صبياً كي تنجبين له عشرة صبيان يحمون الوطن الكبير، لكنه سرعان ما تعلّق بك

ورضي بما قسمه الله له، فأسماك وطن كي تحمي وطنه الكبير إن غاب هو عنه.

- وأين هو الآن؟ هل هو مدافع عنه؟ أم ماذا؟

قالت ذلك بدموع أغشت مقلتيها، الألم هنا رافض الرحيل، وكأنه احتلّ صدرها قائماً بمآدب كبرى في قلبها، حيث أشعل براكين ورفض إخمادها.

حين رأت الجدّة عذابها وشعرت بحالها أرادت أن تواسيها وتحدّثها حديثاً ينسيها آلامها ويفتح لها باباً للسعادة، فقالت:

- أخبري نمر يا صغيرتي أن يأتي إلى هنا ويجعلك زوجة له حلالاً بدلاً من الخوف والنحيب والبكاء.

نظرت إليّ فجأة وكأنها

تنتظر مني أن أكمل عنها الرواية، ثم ارتشفت القليل من الماء، وسكتت شاردة في الآفاق وكأنّها تبتهل إلى باريها، قد تجمّع الدمع بعينيها ولم ينسكب، ثم أخفضت رأسها فجأة تتذكّر شيئاً حدث معها هناك ولا يمكن نسيانه. تعبت من الجلوس فقررت السير في الحديقة تحت الأشجار كي تستريح من هموم تثقل كاهلها وترهقها. ثم قالت وهي تنظر إلى الأرض:

- خوفي من الله كان يدفعني لتصديق كلّ من يحلف لي، كنت أظنّهم يخافونه مثلي.

وقفت أمام بحيرة من البطّ تراقبهم وكأنّها نسيتني خلفها، فاقتربت منها ووقفت بجانبها، لم أطلب منها أن تكمل أبداً، كنت أدرك أنّها ما عادت تحتمل ولكنّها كانت عنيدة ولديها إصرار كبير في المتابعة. أكملت وهي تطعم البط:

- ألم أقل لك يا سنا منذ البداية أننا من أخطأنا وأننا من بدأنا الخطيئة قبل مجيئ داعش ولكنها أكملت المهمة، أكملت المهمّة باسم دينٍ لا تحمل له انتماء وباسم إله لا يعبدونه. صدماتي كانت عنيفة للغاية في بيتنا الذي ولدت فيه _ في انتمائي _ أكثر من وجودي أمة جارية في بيت أمقته. (أمي، أبي، الحيّ القديم، الجدّة) الأحداث جميعها تدور في خلدي ولا أتذكّر منها سوى النهاية. البداية كانت جدّ أليمة ولم أعِ ذلك لأنني لم أكن هناك لأعترض، لأخبرهم أن انتمائي إليهم عار بدلاً من الفخر به. وطن أضحت عار

على الجميع، أأبكي كي لا أنجب خطيئة في رحمي وأنا بحد ذاتي جرم كبير وخطيئة قاتلة؟ كنت أخشى حمل صبي في أحشائي. يلومني المجتمع وتقتصّ مني داعش، لو كانت أمّي حين حملت بي في زمن داعش تعيش، هل كانوا سيقتصّون منها؟

- ربّما... إن عرفوا ذلك.

- عرفت أنني لا أنجب ليس من الجدّة بل لأنني لم أنجب إلى الآن ولم أحمل في رحمي أيّ ذنب يجعلني أقتات الندم لأجله.

تعبت كثيراً اليوم وأرهقتها فما عادت تستطيع السير ولا الكلام، فسألتها:

- هل نتوقّف اليوم ونكمل غداً... أراكِ متعبة ومرهقة.

ابتسمت ابتسامة باهتة واستندت علي حتى مشينا إلى أقرب مقعد فارتمت فوقه

وقالت:

- لا تخافي، عرفت كيف أداوي نفسي بنفسي، عرفت هناك كيف أعتني بذاتي لوحدي، فأنا الدواء والداء معاً. سأخبرك كلّ شيء هناك لأنّ لديّ مهمّة عليّ إنجازها. لست متعبة إلى الحدّ الذي يجعلني أتوقف عن سرد ما حصل معي في المدينة الكبيرة. سأكمل.

* * * * * * *

تركت غرفة الجدّة وهي في

اضطراب شديد بين التصديق والشك، لم تستطع النظر في وجه قمر تلك الليلة، حاولت محو ما قالته الجدّة من ذهنها، فقمر بالنسبة لها أطهر مخلوقات الأرض وأشرفهم، أيعقل أن تكون عكس ما كانت تحضّها عليه، (أحمي نفسك أوّلاً... ثم أحمي الوطن الكبير) وماذا عنها لماذا لم تحمي نفسها؟ جلست تحت شجرة النارنج تقرأ الأخبار خارج حدود هذه المدينة وشوقها إلى الوطن الكبير في ازدياد، ليتها تستطيع الهروب إلى هناك ولكن شبح الخوف جاثم على صدرها، جلست قمر قبالتها تستفهم ما حصل لصغيرتها فهي اليوم ليست على ما يرام، أخفت عيناها بيديها كي لا ترى

احمرارهما وهربت إلى غرفتها وقفت على بابها تنظر إلى عيني والدتها، إلى الكذب القابع بهما وقالت:

- ليتك يا أمي استطعت حماية نفسك قبل أن تأمريني بحماية نفسي، على الأقل لم تُرغمي على فعل شيء، فعلت كل ذلك بقلب ميّت ولم تأسفي على فعلتك تلك، يؤسفني كوني ابنتك.

تركتها مصدومة مدّت يدها كي لا تدخل غرفتها فتستمع لتبريراتها وإن كانت كل حججها واهية وكاذبة، عرفت أنّ الجدّة هي من أخبرتها بكلّ ما هو قديم، توجد أشياء لو بقيت مختبئة لكانت الأمور ستسير على ما يرام، هناك أشياء لا يجب أن تقال ولا يجب أن يعرف بها أحد. دخلت غرفة الجدّة لتعاتبها، فوجدتها تغطّ في نومٍ عميق.

لملمت وطن حاجياتها على عجلٍ وخرجت من البيت قبل أن تراها والدتها، إذ كانت الأخيرة في غرفة الجدّة تنتظر نهوضها لمعاتبتها على كلامٍ ما كان يجب عليها قوله. غادرت وطن البيت الكبير وهي شاردة لا تعرف إلى أين المسير؟

دخلت امرأة مسرعة غرفة الجدّة لتخبر قمر أن ابنتها قد تركت البيت. صرخت قمر وجلست على حافة سرير الجدّة تنتحب ضياع ابنتها من جديد، فتحت الجدّة عينيها لتعرف ما يجري في غرفتها، لم يكن في الغرفة سوى قمر وشيطانها أمسكت وسادة من جانب الجدّة ووضعتها على رأسها كي تخنقها، هي الآن تكررها وقالت بصوتٍ مبحوح:

- كان يجب عليّ أن أفعلها منذ زمن والآن لم يعد لك مكاناً للعيش بينا، آن لك أن تموتي لتستريح الحياة من لسانك الطويل.

كانت الجدّة تميل وتضطرب كانت تريد أن تقول شيئاً ولكن لم تسمح لها، ارتعشت أطرافها ثم هدأت واستكانت ولم تعد تبدي أيّة مقاومة، وضعت الوسادة مكانها وخرجت إلى غرفتها تبكي ذهاب ابنتها منها.

في تلك الليلة جاءت الشرطة وفتحوا تحقيقاً في الحادث ودارت الشكوك حولها فهي الوحيدة التي كانت هناك، ومع أنّ داعش كانت سعيدة بموت الجدّة، فبموتها اندثر التاريخ ووحدها داعش ستكتبه بدماء الضحايا وصراخ النسوة الرافضات للاغتصاب، ستسطّره كما أرادت أليست هي المنتصرة؟ والتاريخ يكتبه المنتصر.

بعد أيام قليلة كان جسد قمر يتأرجح في الساحة دون رأس وشهد إعدامها المدينة كلّها، لم يرأف لحالها إنسان هناك، فهي الآن قاتلة ولن تشفع لها حججها. وصلت دماؤها إلى السوق وصارت حديث المدينة بأكملها، علمت وطن من جيرانها إذ كانت في البيت القديم، بكت والدتها كثيراً وبكت الجدّة كثيراً، ظلّت طول الليل تبكيهم وترثيهم دون أن يواسيها أحد.

أيام كثيرة مضت وهي هناك ولكن داعش لن تترك امرأة تسكن وحدها، هاجموا بيتها وفتشوه، اتهموها اتهامات عديدة لا ذنب لها فيها، سيسامحونها مقابل أن تذهب معهم فلتتزوج واحداً منهم، ووقف الثلاثة أمامها وكان عليها اختيار واحدٍ منهم وكأنّهم شيءٌ فريدٌ وهم القباحة ذاتها. اختارت رئيسهم، لا لشيء فقط بسبب نظراته المرعبة والتي كانت مليئة

بتهديدات فهمتها على الفور وغادرت معه بعد أن لملمت ملابسها.

*   *   *   *   *   *   *

- كان الأمر سيئاً بالنسبة لي كثيراً، لم أنس بعد فعلتها منذ زمن حتى أضحت قاتلة، أو تظنني إن قتلت سأعود إليها؟ أدرك أنّ الجدّة ثرثارة تتفوّه بأمور يجب الصمت حيالها، لذلك كانت داعش تمقتها وكانت تريد قتلها مرّات عدّة ولكن كانت تخشى عصيان أهل المدينة وثورتهم عليها، فهي تمثّل التاريخ والحضارة، فرحوا لأن والدتي هي من فعلت ذلك ومع ذلك اعتقلوها بتهمة القتل العمد وصوّبوا فوهات بنادقهم إلى صدرها العاري، أرادوا اغتيالها فاغتالتها أمي وبذلك وأدوا الحرب الأهلية قبل اشتعالها، استطاعوا إيهام الجميع بأنهم معنا قلباً وقالباً. ليتني ذهبت تلك الليلة كما أوصتني الجدّة يا سنا مع نمر لما كنت صرت مع غيره، ابتسامته كانت في

ذهني لا تغيب ففي كلّ مرة أراه في ذهني يهمس قلبي أننا على وشك الغرق، لكلّ قلب روح وروح قلبي هو وحده.

نظرت إليّ وكأنني رأيت في روحها شقّ هائل وليت معي خيط وإبرة، كي أخيط جراحاتها النازفة، هناك فراغ يملأ خلاياها رغم ضجيج عقلها وثوران ذهنها بذكرياتٍ تحاول الهروب منها. وبينما أنا معها وإذ بأمّي تتصل بي، أغلقت في وجهها فاليوم لي موعد مع الآلام، آه يا أمّي لو كنت معي الآن لعرفت أنّ خوفك عليّ لهي أصغر الآلام، في الجنّة نحن نعيش يا والدتي، في نعيم أبدي نحيا، أصوات الانفجارات تلك هي صغيرة جدّاً على العذاب هناك، ليت الوطن الكبير يستعيد ابنته الضالّة منه ويرجعها إلى حضنه مجدّداً. نسيت آلامي بوجود آلام لا تحتمل، آلامي وردة أخيط بها جراحي ولكن ماذا عن آلام وطننا الصغير. عذابها الذي

كانت تجاهد لتتجاوزه كان يعاد بطريقة أخرى وبعذاب أكبر. بقيت أنا وإياها شاردتان في كل شيء وفي لا شيء في الوقت ذاته. فقطعت الصمت هي بصوتها النحاسي:

- سنا
- نعم
- ما الذي يشغل بالك؟
- عذاباتك هناك.
- وماذا استنتجت؟
- لماذا الوطن لم يستعد المدينة من المرتزقة؟
- لأنه يريد استعادتها بطريقة لا يموت فيها الكثير من الضحايا وبالتالي يقتل جميع أفراد التنظيم. ربّما أرهقتك اليوم كثيراً، أليس كذلك؟

– لا عليك وإن كانت الآلام عليك قاسية وعليّ مجرّد حكايات تروى ولا أستطيع أن أكون مكانك، ربّما سأشعر بعذابك ولكن العذاب لا يقتل إلّا صاحبه مهما حاولنا أن نشعر بشعورك لن نكون مكانك. أكملي... ماذا حدث بعد ذلك؟

* * * * * * *

كانت تشعر بخيانتها لنمر كلّما

اقترب منها مولاها كانت تخونه في الدقيقة سبعين ثانية وفي الساعة ثمانين دقيقة، كان العذاب هناك هيّن مقابل ما عانته طيلة تلك السنوات، فسيّدها الجديد لا يضربها ولا يجلدها، بل يأمرها وعليها الإطاعة مرغمة راضية لا يهمّه، ما يهمّه تنفيذ ما تؤمر به، كان يهددها بالشرطة على الدوام لذلك كانت لا تعصي له أمراً.

كلّ ليلة عليها التزيّن والتطيّب بأجود أنواع العطور ليقدّمها لأحد أعضاء التنظيم مقابل مبلغاً من المال، كان يجني من ورائها ثروة لا بأس بها، يغلق الباب عليهما ويجلس في الصالة بانتظار إكمال الصفقة وما تبقّى له من ربح عند الزبون، لا يقترب منها بتاتاً حين ينهي الزبون عمله ولا يدخل غرفتها، بل يتركها تستحم ألماً وشقاء وعذاباً، يتركها تغسل أدران الزبائن عن جسدها وهي تلعن نفسها مئة مرّة هروبها

من هناك، تلعن ثرثرة الجدّة وعتابها لقمر تلك الليلة، تبكي والدتها بشدّة وتبكي الجدّة العجوز، تبكي والدها الذي ما عاد يعني لها شيئاً، وفي نهاية المطاف تبكي نمراً شوقاً وحنيناً، فهو كان الدواء لها في زمن الداء، كان بمثابة البلسم لقلبها الجريح، كان غزالاً في زمن يعجّ بالذئاب، كان رجلاً في زمن قلّ فيه الرجال.

مضت الأيّام ووطن تفعل كل ليلة ما كانت ترفضه، ترمى كوردة ذابلة حين يفرغون منها، يشتمونها بأسوأ الألفاظ وأقذرها، تصمت فالكلام هناك محرّم لجارية مثلها، تجلس على السرير وتتكوّر على ذاتها وهي تدرك أن لا بيتاً عاد يستقبلها ولا رجلاً يرضى أن تكون زوجته.

لم تجد أحد يشاركها عزائها بل كانت كل أنثى هناك تقاسي ما تقاسيه من شتى ألوان العذاب، لم تجد يداً حانية

تمدّ لها يد العون، كل الأيدي كانت مبتورة وكل الأعين ضريرة.

وماذا بعد؟ هل ستبقى هكذا جسداً لكل عابر سبيل تطأ قدمه أرض الغرفة الجليدية؟

قررت وطن أخيراً الانفجار كبركانٍ خمد لسنوات، فقد آن أوان إعلان الثورات الكبرى وتحرير الوطن الكبير من براثن المرتزقة، ولكنها عاجزة عن تحرير نفسها فكيف ستحرر الوطن، ستهرب من هنا إلى حبيب الروح ستتفق وإياه على الهروب معاً وتحرير كلّ شبرٍ من المدينة، لن تبقى ظلّاً لأحد ولن تكون امرأة لكلّ عابر بجسدها.

في تلك الليلة الصيفية من ليالي يوليو الحارة جهّزت نفسها للضيف الجديد وقدّمت له نفسها وهي واثقة أنّ هذه المرّة ستكون الأخيرة فجسدها محرّم على الرجال بعد هذه الليلة، ستفعل المستحيل كي لا تكون جارية لأحد، لن تبقى

خانعة ذليلة أكثر من ذلك، بعد ستة عشر عاماً أدركت وطن ذلك وإدراكها جاء متأخّراً جدّاً ولكن أن تأتي متأخّراً أفضل من ألا تأتي أبداً.

أنهى الضيف مهمّته وأودع ما بمحفظته من نقود بحوزة مالكها وغادر البيت على عجل وكأنّه راحل إلى جارية أخرى يقضي ما تبقّى من ليلته عندها. لم تنم فهذه الساعة هي التي تحدد حريّتها من القيود البالية اللاإسلاميّة واللاأخلاقية، لبست ثيابها بعد أن استحمّت وغسلت جسدها جيّداً من درن الضيف، ووظبت ملابسها، خرجت على رؤوس أصابعها، وجدته نائماً في الصالة يشخر كالخنزير البري وأمامه زجاجات الخمر الفارغة وحزم من النقود. مشت بخفّة أكثر خشية إيقاظه في لحظة ستكون عليها قاسية جدّاً. هي تدرك جيّداً أنه حال انتهائه منها سيبيعها بأبخس الأثمان لرجلٍ لا يعرف الرحمة. فلتغادر الآن إلى من هو أرحم منهم

جميعاً، إلى من كان لها السند والقوّة والحنان. فتحت الباب وخرجت، لم يكن مقفلاً، ربّما لأنه ضمن وجودها فلم يقفل كعادته. وبدأت تركض في شوارع المدينة الفارغة إلّا من أصوات صواريخ لا تعرف أين تقع ولا تعرف مصدرها. ظلت تركض لساعة كاملة، خيّل إليها جميع من في المدينة يركضون خلفها يهددونها بالعودة إلى قاتلها، خيّل إليها الكلاب الشاردة تهجم عليها لتأكلها كما اعتادت أن تفعل كل ليلة في الساحة، وجسدها هناك معلّقاً في الساحة وقصّتها صارت حديث بيوت الحيّ بأكمله، هاجمتها الكوابيس حتّى ظنّت أنها ستموت من كثرة التفكير، كان الطريق طويلاً للغاية عليها ولأوّل مرّة تشعر بمرارة الطريق ووعورته، وصلت أخيراً إلى الحيّ القديم، لم تكن تجاوزت المدّة سوى ربع ساعة ولكنّ من خوفها اعتقدت أنّها قد اجتازت ساعات كاملة وهي تركض بشدّة.

دلفت إلى البيت الكبير مرّة أخرى ولكن هذه المرّة كان الأمر مختلفاً عن المرّة الأولى التي دخلتها، في الماضي كانت متفائلة وسعيدة، ولكن الآن دخلته خائفة تعتصرها ذكريات مؤلمة ومرعبة. نامت تحت شجرة النارنج متعبة مرهقة.

استيقظت في اليوم التالي على تجمهر العجائز من حولها، جلسن يستمعن لأسباب عودتها وما حلّ لها، قصّت على الجميع بألم مرت به. تعاطفت النسوة معها، مع ما مرّت به، ورضين أن تقاسمهن الخبز والملح ولا تخرج من البيت كي لا يتمّ اعتقالها.

مرّت الأيام والدنيا تدور في وطن كلّما حاولت الوقوف على قدميها تقعدها رياح الحرب، إذ زادت أصوات الاشتباكات من الجهة الشماليّة للمدينة وتبعتها جهات المدينة

كافة، كانت المدينة أشبه ببركان هائج يكاد يثور في لحظة ما؟ والكلّ في خوفٍ وترقّب بانتظار إعلان ساعة الصفر.

لم تر نمر بتاتاً إذ كان غارقاً في نوبة الحرس لا يأت إلّا لماماً، الطائرات تغير على تجمعات عناصر داعش وتلقي بحمولتها فوقهم، فتسمع أصوات التكبيرات تدكّ المدينة وترفع الرايات السوداء على أسطح الأبنية العالية إيذاناً بعمليّات انتحاريّة، ووطن ما زالت كلّ ليلة تقف أمام البوابة الكبيرة تنظر باشتياق إلى بيت نمر الغارق في الظلام تبكي حلمها المصلوب على رايات داعش السوداء.

كلّ يوم تجلس على الحافة الصلبة تتذكّر نمر وكيف علّمها فنون داعش القتالية وأسرارهم الصغرى، استطاع تعليمها العزف على الهواتف المحمولة الجديدة ذات التقنية العالية، جلست هنا بنقابها الأسود تفتح صفحتها على برنامج

"الفيس بوك" كي تتواصل مع أناس ولدوا وعاشوا أحراراً خارج هذه المدينة الملعونة.

كانت تفكّر به وهل سيقوده الشوق لرؤيتها؟ أم ماذا؟ هل قتل؟ أم ما زال يعيش على قيد غرامها ؟

رآها جالسة لوحدها هزّه الشوق ورماه بجوارها، ما زال يعشقها بحجم خوفه عليها وبعدد أنفاسه وبعدد نوبات الحراسة التي حرسها قاطبة، رآها ترتجف خوفاً وليس برداً، فهو أمانها في لحظات كانت ترجو الأمان، في لحظات ضعفها يأتيها أمانها من حيث لا تدر. ظلّ يراقبها كطفل فقير يستمتع بالنظر لقطعة حلوة من خلف زجاج الحانوت دون أن يطلب من البائع شرائها، كانت قطعة الحلوة بالنسبة له، ولكنه لم يكن فقيراً بل كان البائع والزبون بآن معاً. اقترب منها وقال لها كلمات رجفت أكثر حين أصغت لقائلها:

- إن لم أستطع أن أضيئك أفضّل الإنطفاء معك.

نظرت إلى لمعة الحبّ في عينيه وكأنّها تحكي لها حكاية الشوق والحنين... ثمّ نظرت إلى هاتفها كي تتفادى نظراته الشغوفة بها

وقالت:

- الندوب التي تملأ جسدي ستشفى مع الأيّام، ولكن الندوب التي لا تراها هي الأصعب في الشفاء.

- سنحاول تخطّيها ونزرع ياسميناً على كلّ ندبة ونسقيها أملاً ورجاء.

- وهل سننجح؟

قالتها وهي تنظر إلى عينيه، جلس على ركبتيه أمامها وأمسك يديها قائلاً:

- نعم... أعدك بذلك... طالما أنا معك... أأخبرك شيئاً؟

- ما هو؟

- كان الليل يمثّل لي آلاماً كبيرة بسبب غيابك، كم هي مؤلمة الليالي بغياب من عوّدنا على السهر؟ كلّ ليلة تزورني آهات الشوق لأسافر إليك وحدي فلا أجدك في المدينة الكبيرة، كنت أخاف أن تبتلعك شوارع المدينة فلا أجدك حينها.

- أنا شجرة كبيرة وارفة الظلال كثيفة الأوراق، تمتد أغصانها إلى كلّ الأراضي، شجرة خضراء كانت إلى أن

جاءها الخريف فاقتلع أوراقها صارت عارية مما كان يسترها، أتدري لماذا؟

- لماذا؟

- لأنّها خضراء لا تنجب، وإن جاءها الربيع مرّة أخرى، وإن جاءها الصيف فلن تنجب. مقطوعة موسيقيّة أنا في بيت عازف أصم يشاركه اللحن مستمع أصم. حكاية قديمة أنا في بيت جدّة مسنّة، حكاية لا يسمعها أحد ولا ترويها الجدّة لأحد، تموت الحكاية إن لم تجد أذناً ترغب بسماعها. أليس كذلك؟

- مخطئة أنت فيما ذكرت وقلت، الشجرة الخضراء تعطينا الظلال وتجنّبنا حرارة الشمس، المقطوعة الموسيقية أنا سمعتها أعجبت بلحنها، فهل أنا أصم؟ الحكاية لم تكن قديمة بل كانت أجمل الحكايات وأحدثها، رويّتها لقلبي مئات المرّات فأنّى لها أن تموت.

ترك يديها ووقف، تراجع بضع خطواتٍ إلى الوراء، نظر إلى بيته المظلم ومن ثم إليها، وقال لها:

- قبل أن أذهب يجب عليّ إخبارك بأمرٍ ما (إذا جاء الغد من دوني، انتبهي على ذاتك جيّداً...وإن عدت سنتزوّج سريعاً، وسنحتفل معاً رغماً عنهم).

وقفت وطن واقتربت منه هامسة له:

- هل ستعود؟
- لا أدري.
- لن تعود.
- لماذا؟
- لأنّ أبي رحل وقالها قبل أن يرحل ولم يعد.

- لا أستطيع منحك وعداً لا أعرف إن كان باستطاعتي تنفيذه أم لا، فحياتي ليست ملكاً لي. وبالنسبة لوالدك سيعود يوما إليك.

- أبي الذي قال لي في ليلة قمريّة (إن طلبت النجوم يوماً سأعود إليك حاملاً القمر). لم يكن أبي ولن يكون كذلك. كم تمنيت أن يكون جميع ما مررت به كابوساً أستيقظ منه فأنساه. ولكن ما يعذّبني هو أنّ هذا الكابوس هو واقعي.

تنهّد كحاله في كلّ مرّة تعانده وتغيظه وقال لها بحنانه الذي اعتادته منه:

- لا تنسِ أنّ الشجرة التي لا تنجب تهبنا الظلّ، سأعود ولكن لا أعدك بذلك، إن عاد الرفاق بدوني لا تنسِ أنّ الحياة ستمضي إن كنت بها أحيا أو لم أكن. أكملي المسير

لوحدك بقوة وعزيمة، ولا تكوني وطن الضعيفة، فالضعف ليس من سمات الوطن، إن عدت سنتزوّج.

قبّل رأسها ومضى مخلّفاً إياها خلفه فصرخت من ورائه:

- ولكنني في المرحلة الأخيرة لنسيانك، لا تفسد الأمر وتعود.

لم يعد ولم يلتفت، بل أكمل المسير راسماً ابتسامة على ثغره وهمس في قلبه (ولكنني ما زلت في المرحلة الأولى من عشقك، أنّى لي بتركك).

جلست على الحافة وأمسكت بهاتفها بقوّة تكاد أن تحطّمه هامسة لقلبها (لن أنساك.. سأنتظرك).

كانت الأيّام صعبة عليها، قاسية على فؤادها، شاقّة على روحها، عسيرة على جسدها. كم تمنّت ألا يرحل فتبقى بين يديه طفلة عابثة ولتهرب معه إلى... إلى أين ستهرب وكلّ الشوارع تؤدي إلى سجونهم، المدينة بحدّ ذاتها سجن كبير ولا أحد يستطيع الإفلات منه.

تجلس كلّ ليلة مقابل بيته المظلم فتناديه باسمه، يعود إليها صدى صوتها قائلاً لها (قد رحل بلا عودة) تكذّب حدسها وحاستها السادسة، وتفنّد كل الإشاعات التي تخبرها بموته في الصحراء القاحلة وتُركت جثّته للضباع والكلاب. تدرك أنّه سيعود إليها يوماً طالباً منها الزواج الحلال الذي لم تعرفه من قبل هنا .

مر شهر على غيابه وهي ما زالت في مكانها حيث اعتادت الجلوس ومراقبة العامة علّهم يأتون بخبرٍ يثلج صدرها، ولكن التي جاءتها شرطة الحسبة، اعتقلوها بتهمة

إظهار الفاحشة في العلن، وساقوها إلى محاكمة ميدانية. صدقت قمر في ذلك حين قالت لها (الجدران لها أذان يا وطن، فاحذري حين تتكلّمين) قوّة العشق والشوق لديها أنستها الجدران الكثيرة التي تقطن الحيّ القديم، أنستها أنّها كانت تتكلّم معها بالعشق والغرام أمام الجميع متناسين مبدأ الجدران. قادوها مقيّدة بنقابها الأسود أمام الجميع، فالكلّ قد اجتمع ليرى ويسمع ما صنعت هذه الفتاة، منهم من يعرفها وأنكر الخبر، ومنهم من همس بأنّه رآهم مرّات عدّة في الزقاق الضيّق في مشهد لا أخلاقي، ومنهم من أراد أن يعرف المزيد فضولاً فقط، ومنهم من شمت بها ضاحكاً على بلواها. نظرات الناس إليها تعنّفها أكثر من القيود التي في معصميها، ليتهم ما كانوا هنا ولا كانت هي هنا.

جرّوها إلى بناء تحت الأرض، كبيرٌ جدّاً، أضواء خافتة قد اشتعلت بداخله (أرجوانية وصفراء) كان المكان يشبه

المسلخ تماماً، فيه سلاسل معدنية ذات حلقات كبيرة تمتدّ من أعلى السقف لأسفله. رائحة الدماء تغطّي المكان وتزكم الأنوف، الأرض مليئة بدماء أبرياء لا تعرفهم، ولا تعرف حكاية إعدامهم هنا، ساقوها إلى هنا كي تموت الميتة ذاتها، كي تقاسي صنوف العذاب ثمّ تموت، هنا حيث يموت الإنسان ثمّ يقطّع وتباع أعضاؤه في السوق السوداء، وجدتها داعش تجارة مربحة وخاصة لأناسٍ لا تريد لهم الحياة.

سمعت استغاثات تعرفها، نظرت إلى مصدر الصوت ليتها لم تنظر، كان يرتدي أفرولاً برتقاليّاً ومعلّقاً من رجليه بسلسلة حديدية في السقف. ورأسه يتدلّى إلى الأسفل، هبط قلبها وهرع إليه، تلاقى القلبان في مشهد يبكي من سمع عنه ورآه، تعانق القلبان في مشهد وداع الموت والحياة، الرحمة والعذاب، حاولت الصراخ بقوّة ولكنّهم أسكتوها ورموها قبالته، قيدوها جيّداً وعقدوا الحبل مرّات ومرّات، كان الحبل يضغط

على كاحلها بقوّة وقلبها يضغط على كل ما في جسمها وهي في عالمٍ آخر، هي معه وتتمنّى أن تكون هي الثانية، تدرك ذلك جيّداً ولكنّها تريد أن تكون الأولى، تركوها لدقائق تتعذّب لمرآه وهو يحاول أن يكون هادئاً كي لا تخاف أكثر، حتّى في لحظاته الأخيرة يحاول إعطائها جرعة الأمان أمام الخوف، ولكن الأمان سيقتل الآن وسيهاجم الخوف وطن ويحتلّها أكثر من أيّ وقت مضى.

انتهت دقائق الانتظار وكأنّ قرناً بكامله مضى واقترب السيّاف بضخامة جسده وقناعه الأسود، جاءه من الخلف بينما كان نمر ينظر إليها بابتسامة هادئة يمنحها لها، في وداعه كأنّه نمر أصيل، وهي تغتسل بقطرات الدمع التي ملأت وجنتيها تبتهل إلى خالقها معجزة كبيرة تغيّر مجرى الأحداث وتقلب تفاصيل الحكاية، رغم موقفه الضعيف إلّا أن عينيه كانتا تضجّان بالمرح وفمه كان يهمس لها بحبّ كان

صادقاً ولم يكن كاذباً، كان حبّاً حلالاً ولو تركوه لتوّج بزواج حلالٍ، ولكنّهم خشوا على عاداتهم وتقاليدهم أن تقتل بهذا الزواج فقتلوا الحب بتهمة باطلة ليس لها أساساً من الصحّة، لكنّ السيّاف لم يدعه يكمل حكاية الحبّ تلك فعالجه بقطع رأسه بضربة واحدة وكأنّ له ثأراً معه، هنا فقط انفلتت منها صرخة من فمها وأغمضت عينيها كي لا تفيض فأمطرت بالدمع الغزير، صرخت وهي مغمضة العينين كي لا ترى الرأس منفصلاً عن الجسد، كي لا ترى رأسه يتدحرج أمامها. كي لا تر الدماء تغطّي جسده تبحث عن جسدها فترويه حبّاً وحناناً.

تركوها لدقائق ترثيه وتبكيه، تركوها تمتّع ناظريها بجسده ثمّ رأسه، بكته أكثر مما بكت قمر والجدّة فالبكاء هنا مختلف، هنا تبكي أمانها وحبّها وحناناً ما عاد لها. حنينها

إليه تجلدها بسياط الشوق فجسدها لن يذهب بعد الآن إلى حيث ذهبت روحه.

عادت بها الذاكرة سريعاً حيث التقيا أوّل مرّة، كانت على وشك الغرق بمعاناتها فأنقذها مما كانت فيه، ولكنّه غادرها بسرعة جنونية آخذاً معه القلب والروح تاركاً جسدها كدمية لا تشعر بشيء، ليته حينها تركها تغرق دون أن ينقذها لكانت وفّرت على نفسها آلاماً جديدة.

عاد قائدهم وأمسكها من كتفها، صاح بها:

- لن نرجمك... مع أنّك تستحقين العقاب، سنزوّجك لرجل من قادتنا الكبار، وإن عدتِ إلى ذات الأمر سنرجمك حتّى الموت يا فاجرة.

وأمرهم بأخذها إلى زوجها الجديد ، فكّوا قيودها الحديدية، وقفت وكأنّها في عالمٍ ثاني، الأرض ليست أرضها وحياتها لم تعد ملكها، رحلت معهم بعد أن شعرت بخيانتها له للمرّة الثانية، ليتها ما عادت له لكان الآن حيّاً يرزق.

رحلت معهم لتبدأ فصلاً جديداً من فصولها أمة صاغرة ذليلة، وتركوه مضرّج بدمائه التي غطّت أرض البناء ورأسه على الأرض يشهد على إجرامهم واغتيالهم لحبّ كان أنقى من حياتهم.

أدارت ناظريها كي لا

ألمح انسكاب قطرات الدمع على وجنتيها، كانت تنظر إلى اللاشيء، عيناها تتجوّلان في فراغ العدم، وذاكرتها رحلت إلى الماضي القريب، هناك حيث حطّت ذكرياتها لتملئ رحالها من فيض الألم والعذاب.

تركتها تتذكّر وأطفئت جهاز المشغّل خاصتي، لعلّي أسعفها بكلمات أواسي بها جراحها الخالدة والنافرة، ولكن الكلمات تاهت منّي وضاعت لأصمت كما صمتت هي من قبل وأتأمّلها وهي تحاول بكل كبرياء أن تمحي تلك الدمعة اللئيمة. قالت وعيناها ما زالت تبرقان في سماء العدم:

- أتعرفين معنى أن يرتجف جسدك من غليان القهر فيه، هكذا كنت، وكأنّ الدمع يغلي في جوفي دون أن تنهمر منه قطرة

واحدة، كان الدمع يتبخّر من حرارة جسدي، لكنّه يسقط في قلبي، ودموع القلب أشدّ عذاباً من دموع العينين.

مسحت على جسدها النحيل وودتُ لو أحمل جزءاً من معاناتها عنها، ولكن الألم لا يشعر به سوى صاحبه. أمسكت بيدي وتلاقت نظراتنا وكأنها تبحث فيّ عن أخت لم تلدها أمّها، وارتمت في حضني تبكي خشونة السنين، وقهرٍ لم يولد سوى لها. تركتها تبكي وتنتحب عمرها هناك، وأنا أمسح على رأسها، ودمع عيناي ينسكب بهدوء على جسدها. بعد دقائق من نوبة البكاء التي أصابتها، جلست ومسحت دموعها بمنديل أعطيتها إياه وقالت وهي ترتجف:

- أنا لم أولد للسعادة، ولدتُ للآلام، لم أحلم يوماً بواقع جميل لأن كابوس واقعي مرعب لدرجة الهلاك، كلّ ما

في الحقيقة كذب وخداع، أضغاث أوهامٍ لا وجود لها، كوابيسٌ وآلام. حين قررت نسيانه، وجدت نفسي عالقة في ذكراه، حاولت الهروب كثيراً وفي كلّ مرّة تهرب نفسي إليه. لمحت في عينيه وطني الضائع مني وأمنيتي المعلقة. حين أحببته رأيته أجمل من في الأرض وأطهرهم ولكن سرعان ما قتلوا الحبّ قبل أن يكبر. كان منظره مؤلماً جداً وهو معلّق بين السماء والأرض يمنحني القوّة في أقسى لحظات ضعفه، قتلوا الحبّ من على أرضنا واستباحوا دماءه الطاهرة، من سمح لهم بفعل ذلك؟ من أمرهم بقتله؟ ولماذا؟ انتزعوه حتى من قلوبنا فلا طاقة لنا على الحبّ لأن الحبّ باختصار في تلك المدينة عارٌ على الجميع. قتلوا الأمان الوحيد هناك فأصبحت في خوفٍ مرعب، أمانيَّ هناك قتلوه بأبشع الطرق وحشيّة ولم يتركوني أرثيه وأبكيه، تسابقت معه بالحبّ والمشاعر، ازداد حبّنا وارتفع إلى الأعلى، أشبعني حبّاً وأماناً وأسكرني عشقاً

فقبلت الربا في الحبّ مقابل أضعاف المشاعر التي سرقتها منه في ليالي الحبّ الصادقة، أرادوا قتل قلبي بقتله، سنين عديدة وأنا أخاف المرور من تلك الساحة خوفاً من الأجساد المصبّغة بالدماء، حتّى أروني ذلك بشخصٍ كنت أتمنّى موتي قبل موته ، قتلوا نور الأمل في عيني، وأحالوا الدنيا إلى سواد أكثر من قلوبهم وراياتهم.

- وماذا حدث بعدها؟

- ما حدث كان فظيعاً للغاية، وكأنّ سماء العذاب قد فتحت لي على مصراعيها.

- كيف ذلك؟

- سأخبرك.... لا تصدّقي من قال لك يوماً بأنّه سيقاتل على تراب الوطن حتّى آخر قطرة تسيل منه، كان دائماً يرددها وهو يحملني على ظهره ليعلّمني فنون القتال البدائيّة ويحثّني على حماية الوطن الكبير (وطننا سورية).

قاطعتها أنا مشككة في آخر كلمة قالتها:

- هل تعترفون هناك بوطنيتكم للوطن الكبير؟ هل تعترفون أنكم تابعون لها وتحت حمايتها؟

ابتسمت ابتسامة الشقاء والعذاب وقالت:

- جميعنا هناك نعترف بذلك، ونأمل أن يأتي اليوم الذي تستردّ فيها الأمّ ابنتها الشريدة التي ضلّت كثيراً وتاهت عن درب الحقّ، ولكن سيأتي يومٌ وتعود، القوم هناك جبناء ولا يملكون سلاحاً يشهرونه بوجه القوة. كلّ واحدٌ منهم يسأل: (لما يجب عليّ أن أبدأ المعركة). كلّ واحد منهم يتمنّى النجاة ولكن دون أن يصاب هو وعائلته بخدش واحد.

- سيستعيدها يوماً. محال على الوطن ترك ابنته تبعد عنه كلّ هذه المدّة دون أن يخطط لاستعادتها.

نظرت إليّ تتأمّلني وكم ترددت في الكلام ولم تتفوّه بحرفٍ جديد، نظرت إلى المسجّل وكأنها تخبرني بأنها ستكمل وعليّ تشغيله، أدرته لتكمل واستمعت لها...

* * * * * *

وقفت أمام مولاها

الجديد، تنظر إلى ضخامة جسده وهو ذئب ليس بصبور، يريدها الآن وليس غداً، يتأمّل جمالها ورقّتها، يعاينها كالبضاعة من أعلى إلى الأسفل وبالعكس. ها هو ظفر أخيراً بجدايل جارية الأمير فيما مضى وهي الآن جاريته وسيفعل بها ما أراد وتمنّى من قبل.

أمّا وطن فكان حلمها أن يأتي اليوم الذي سيعانقها فيه ويعتذر لها آلاف الاعتذارات بسبب خذلانه لها، كم حلمت وحلمت! وتاهت الأحلام في دمار واقعها، لم تكن تتخيّل نفسها أن تكون هي وإياه على فراش واحد وتحت غطاء واحد، تجمعهما شهوة جنسيّة يمارس هو شهوته وتمارس هي خنوعها.

تراجعت إلى الوراء بضع خطوات فقط تريد الزمن أن يمحي هذه اللحظة بأسرع من البرق، هو يقترب وهي تبتعد، لا تريد لجسديهما الاقتراب، ولا تريد الذهاب بعيداً. هو يريدها قيْنة وهي تريده أباً لها في السرّ والعلن وإن كان ذلك هو الكذب بعينه، إن حدث ما أراد لكانت تلك الخطيئة الكبرى ومن بعدها تنعدم الخطايا، ذنبهما سيكون كبيراً وجرمهما أكبر المعاصي، استجمعت شجاعتها أخيراً لتصرخ في وجهه غير خائفة من الملامة، لا تخش سلاحه المتوضّع على الجدار:

- سيقتصّ منك الوطن الكبير يوماً، ولن تجد فيه حي واحد يأويك، سينتقم منك ولن تجد مكاناً فيه يتّسع لإجرامك. أنت الذي أسميّتني وطن ورفعت راية الوطن على السطح ورسمت حبّه في قلبي، علّمتني كيف أقاتل أعداء الأمة وكيف أدافع عن الوطن الكبير، أراك الآن تقاتل معهم صفاً

واحداً وقائدٌ كبيرٌ في صفوفه ضد الوطن الكبير، تأمرهم بذبحه وعليهم تنفيذ أوامرك.

وسقطت عند قدميه تقبّلهم، تنتحب وتصرخ:

- أرجوك يا والدي.... لا تفعلها.

وقف وكأنّ الخراب قد لاح له، دار به العمر سريعاً ليوقظه على مصيبة كانت ستحدث معه، ليخبره بأن المدينة صغيرة وسيلتقي بها عاجلاً أم آجلاً، ولكن ليس هنا وفي هذا المكان، لا يريدها أن تحتقره وهو المثل الأعلى لها. دار الزمن دورته على عجلٍ واستيقظ على نحيبها بجانب قدميه، نزل إليها وجلس على ركبته، أمسكها من معصميها وأوقفها، ضمّها إلى صدره بعيداً عن شهوته، عناق أبوي حار شهدته

تلك الغرفة، هي تبكي ودمعه يسيل بصمت، بيده يربت على حجابها.

أجلسها على سريره ومسح عبراتها بيديه الدافئتين، هرب الكلام عن ساحة تفكيره فالخجل منها كان هو سيّد الموقف والقشعريرة كانت تدبّ في أوصاله ومع ذلك كان يحاول تهدئتها بين الفينة والأخرى.

قطع الصمت حديثه المرتبك وتبريراته الواهية:

- كم حاولت في البداية الهروب إلى الطرف الآخرِ، هناك حيث الأمان والسعادة ولكنني فشلت. في الجهة الغربيّة للمدينة ساترٌ ترابي خلفه يعيش الناس في أمانٍ وسعادة ولكنّ الوصول إليه يكلّفك ثلاث رصاصات من ثلاثة قناصين يختبئون على أسطح الأبنية هناك. لن تصلي بتاتاً، فالموت هنا محتّم عليك. كنت على علم بمجيئهم مدججين

بكافة الأسلحة المتطوّرة، هرعت مع أصحابي إلى حدود المدينة لعلّنا نفلح في حمايتها، ولم أستطع حماية شيء، هربت منهم إليكم لأوصلكم إلى برّ الأمان وإن كان هو المستحيل بعينه، ولكنني لم أجد سوى أرجوحة خالية وبيت قد هجره أهله، بالله عليك يا وطني سامحي أباك واغفري ذنبه.

- إن سامحتك أنا... فكيف سيسامحك الوطن الكبير، كيف سيسامح ابناً له عصاه وذبحه آلاف المرّات. كيف ستسامحك قمر على ما فعلته بها وبي.

- لا تنحري أباك أكثر من ذلك، لا تقتلي بذور الحياة فيّ، عرفت ما حدث لقمر والجدّة، ولم أعرف الدافع لذلك، ولكن لماذا حدث شيء كهذا؟

- لا علم لي بما حدث. لنعد إلى حديثنا... فشلت في حماية الوطن، فأصبحت قائداً ضد الوطن، كيف تسنّى

لك فعل ذلك؟ كيف هربت وتركت الأمر على عاتق طفلة عمرها خمس سنوات أن تحميه؟

- أسكتُّ ككل الرجال الذين أُسكتوا هنا، كمّوا أفواهنا بطريقة بشعة، إما الموت أو الانصياع، اعتدت على الوضع هنا فقررت إن لم أكن خارج حدود الوطن سأكون معهم، سالت أفكاري حينها مسرى الدم في الجسد حتى صرت معهم مدافعاً ثمّ جنديّاً ثم قائداً.

ولكنني أقسم لك ذات اليمين وذات الشمال ألا يقترب جسدي من أيّة أنثى كانت من كانت، سأبقيك سرّاً هنا بيني وبينك فقط، جارية أمام الناس وابنة لي أمام الله، سأحمي ما عجزت عن حمايته وإن كنت قد تأخّرت كثيراً، ولكن سأفعل الآن ما عليّ فعله كأب وسأحاول قدر المستطاع تعويضك عن حناني الذي افتقدته.

وضمّها إلى صدره، لا يدري الآن بأنّ وطن لا تمتّ له بصلة، سكتت هي خائفة على نفسها منه، ربّما إن علم أنّها ليست ابنته سيغريه الشيطان كي يقتحم جسدها. أبقت على الأمر سرّاً وعاشت معه كابنة مع أبيها وأمام العالم جارية مع سيّدها.

هكذا عاشت تطهو له الطعام وتنظّف البيت ثم تأوي إلى سريرها، كانت تكرهه لم تكن تحبّه، سقط من عينيها بسبب أفعاله الدنيئة، ونفاقه الواضح أدركت ذلك حين فتحت خزانته ووجدتها مليئة بأعلام الوطن الأم. عرفت أنه يحتفظ بها في حال قيام الجيش باستعادة المدينة سيرفعها عالياً فوق سطح بيته ويخفض علم داعش، سيرفعه عالياً وينادي معهم بتحرير المدينة الكبيرة، سيقف رافعاً الأيادي للجيش يشكر قدومهم ويهلل لأجلهم، إنه مع المنتصر دوماً ولذلك هو في القمة على الدوام.

نهضت وطن من

مكانها إذ تعبت من الجلوس وقررت أن تريح ضجيج أفكارها قليلاً، أرهقتني هذه الفتاة كثيراً بأحداث لا يمكن للعقل البشري أن يتصوّرها وأرهقتها برواية لم تنتهِ بعد، وقفت قرب شجرة الياسمين تشمّ أريجها وتقطف ورودها ترميهم في السماء عالياً قائلة لي:

- هل يجوز لنا سرقة الياسمين؟
- أعتقد ذلك، تجوز سرقته..
- لماذا؟

- لأنّه يمثل نقاء البلاد وصفاءها. فالياسمين رمز الشام وعزّتها. فهو حلال لكلّ من عاش عليها وأكل من خيراتها.

عادت تقطف الياسمين، وفكرها قد رحل بعيداً، أعيتها الذكريات وأسرفت في خناقها، تأمّلت الآفاق وكأنّها تبتهل إلى خالقها وهي تسترجع ذكرى ما. ثمّ سارت على مهل وفي مشيتها ذكريات تدميها وتشقيها مع كلّ خطوة تمشيها

وقالت بعد صمتٍ آلمني وحيّرني:

- ما أقسى أن تكون جلّ آلامك ممن كنت تعتبرينهم مثلك الأعلى وقدوتك الحسنة، خاب مثلي الأعلى هنا وخذلت الخذلان الأكبر، لكم تمنيّت لو لم أجتمع به وخاصة بعد أن عرفت عنه ما عرفت، كانا يمثّلان لي

الصفاء والنقاء ولكنّي صدمت بهما وكأنني لا أعرفهما، أو ربّما كنت صغيرة جدّاً فلم أكن أعرفهما كما اليوم.

عزيزٌ أسماني وطن وصار يناديني _ وطن عزيز _ حين يتألّم يضمّني ويغمرني بقبلاته، يناديني أيا وطني تعالي، يأخذني معه إلى فناء الدار يلعب معي ونضحك كثيراً، كنّا نسرق الرمان من بيت الجدّة ونهرب خلف الدار يطعمني إيّاها. أسأله على الدوام: (هل الوطن يَسرق؟) فكان يقول لي: (الوطن يُسرق ويُنهب يا صغيرتي) عزيز الذي تغنّى بحبّ وطنه سنيناً أراه قائداً في دولة القتل والإجرام، زير نساء رأيته رافعاً الرايات السوداء على باب منزله، عزيز الذي كان ينادي قمر (يا قمري.. أفتقدك في كلّ ليلة ظلماء) لم يبحث عن قمر ولم يسأل عنها، لم يسألني لماذا أقدمت على قتل الجدّة؟ وقمر التي ظننتها أطهر نساء الأرض أنجبت جرمٌ كبير من

رحمها، وبالتالي تدمينا داعش وتبكينا ونحن من ذبحنا بعضنا قبل مجيئها.

عادت وجلست مكانها، تنهّدت وابتلعت لعابها بصعوبة واضعة يدها على قلبها، تنفّست بصعوبة ثم قالت:

- كانوا يسيرون مرتدين أقنعة الموت والخراب، الدماء كانت تشير إلام اقترفت أيديهم من جرائم، يقفون في الصلاة رافعين راية التوحيد، يصلّون ورائحة الموت تفوح منهم، وبعد الصلاة يعودون فيبيعون أقنعة للموت والعبرات، يستبدلون بدقائق ثوب الطهارة بثوب الإجرام ويجرّون أذيالهم بسواطيرهم.

قررت وطن

الانضمام إلى جيش المشاهدات، ما دامت على قدرة كبيرة بالتكنولوجيا التي تعلّمتها من نمر، فقد آن أوان الانتقام لحبيبها ولعمرها المسلوب منها، لا سبيل للخروج من مستنقعهم إلا بالانخراط معهم في جيشهم، لم يمانع والدها في ذلك حين أخبرته بقرارها، كان يوافق على ما تطلبه منه لقاء مسامحته على هروبه منهم، ولكن مع كل ما يفعله لأجلها كانت لا تطيقه ولا تطيق النظر إليه، تكره تواجدها في بيته وتمقت الساعات التي يتواجد فيها معها.

بدأت ترتاد ساحات القتال مع بعض النسوة المنقّبات، كانت سريعة الفهم والاستيعاب، لديها قدرة سريعة وخفيفة في الحركات القتاليّة، ما دام لها هدف معيّن فكلّ شيء سيصبح يسيراً وستتدرّب لتقاتل أقوى مقاتلي داعش. كل صباحٍ كانت تتّجه إلى هناك وتبدأ تدريبها الشاق، في كلّ لحظة تمسك بها

البندقيّة تتذكّر ملامح طفولتها، تتذكّر جلّاديها وسارقي وطنها منها. تبدأ التصويب على مسافة أمتار قليلة، تصيب الزجاجة وتتخيّلها رأس أحدهم، تتكسر الزجاجة وتطاير في الهواء وكأنّها أشلاء قاتليها. تفرح لإنجازاتها وهي ترى نفسها تتقدّم بشكلٍ أسرع. فالهدف بات قريباً منها.

تعود إلى البيت تجلس فيه وحيدة تتصفّح حسابها "الفيسبوكي" تحادث أشخاصاً ولدوا خارج سور العذاب، ولدوا في الأمان وترعرعوا في أحياء الوطن وجلسوا تحت ظل ياسمينه. تحسدهم على أمانهم حياتهم، وتختبئ خلف اللحاف تبكي مدينتها السوداء، تبكي هدفها الذي تخشى أن يصعب عليها فلا تستطيع تنفيذه.

تخرج من البيت أحياناً قبل الذهاب إلى ساحة التدريب وأحياناً بعد عودتها من هناك، تصل إلى الجهة الشماليّة للمدينة تقف خلف شجرة الجوز وتنظر إلى تلّة كبيرة خلفها

حاجز كبير خلف الحاجز وطنها الآمن، تبكي كل يومٍ خوفها وترددها في الهرب إلى الجهة المقابلة، ولكن للوصول إلى هناك خطر كبير، فقط ثلاث رصاصات من ثلاث جهات ستستقر في جسدها، ثلاث قناصين قد توزّعوا على أسطح الأبنية هنا لمنع أيّ هجوم على المدينة، تهطل الدموع بصمت دون إحداث أيّ صوت وتتكمش على ذاتها. حلمها بسيط فقط الجهة المقابلة وهناك ستخبر الجميع عما يحدث هنا.

تعود إلى البيت محمّلة بخيباتٍ لا تحتمل، تعتكف في غرفتها وتفتح هاتفها تتابع ما يجري على الساحة القتالية، هناك انفجارات ضخمة لم يحدد مصدرها أودت بحياة العشرات من قتلى وجرحى، وهنا طائراتٍ حربية تطير على علوٍ منخفض ترمي بحمولتها وتعود إلى موطنها، وهنا إعدامات ميدانية بثيابٍ أرجوانيّة، هنا البأس والتنكيل، هنا

مقبرةِ الموت فاتحة أبوابها منذ سنين ولم تغلقها إلى الآن، هنا المدينة تبكي وطنها الكبير، وهناك الوطن الكبير يبكي مدينته الصغيرة.

لم تعد تطيق الصبر أكثر من ذلك. فاحتجازها هنا قد طال وهي تشعر بقيودهم تكاد تخنقها، خرجت من البيت تتنفس هواء المدينة وإن كان الهواء هنا محمّلاً برائحة عفنة لجثث مجهولة، سارت في كلّ الدروب وحيدة لا تخاف الصواريخ والقذائف، لا تخش الاشتباكات، هامت على وجهها تبحث عن الأمل التائه منها، وحيدة ليس معها أحد سوى أحزانها المصاحبة لها كظلّها. وفجأة ارتطمت بشخصٍ ما، وقعت أرضاً وأمسكت بنقابها على الفور خشية وقوعه من على وجهها. نظرت إلى الأعلى كان ما زال واقفاً كالجبل، شامخ كالنسر، لم تنمّ عنه بوادر الشفقة عليها، ولم يبادر إلى الاعتذار منها، استطاعت استجماع قوّتها ونهضت واقفة

فالتقت عيني القطّة الوادعة بعينيّ السنّور البري، كلّ منهما ينظر إلى الآخر نظرة عداء وكأنهم يعرفون بعضهم منذ زمن ، ظلّ يتأمّلها دون أن ترمش عيناه، نظرت إلى الأرض وتجاوزته دون أن يلتفت إلى خطاها المسرعة والهاربة معاً، ظلّ واقفاً في مكانه يحاول تذكّرها، فهو يعرف تلك العينين لمن تعودان، ولكن غابت عن عقله تماماً. مشى مالك وفجأة عرفها وتذكّر من تكون فهي جارية أميرهم (جدايل)، أدار وجهه بسرعة إليها كانت قد تجاوزته بمسافة أمتار كثيرة، ركض إليها بسرعة فائقة واضعاً يده على كتفها كي يوقفها. ناداها:

– جدايل

من فترة طويلة لم يناديها أحدهم بالاسم هذا، التفتت إليه مذعورة كفأرة صغيرة.

- هل تعرفني؟
- ومن منا لا يعرف جدايل _ جارية الأمير _
- وكيف عرفتني دون رؤيتك لوجهي
- عيناكِ.. لم أنس يوماً عينان كعينيك تشعّان ألماً وأملاً في ذات الوقت.
- أين رأيتني؟
- لا يهم أين... ما الذي حدث بينكما ليرميك كنعليه حين يهترئان.

نظرت إليه بتحدٍ وجرأة، تأمّلت إهاناته لها بصمتٍ يقتلها، ثم نظرت إلى الأرض وسارت دون أن تكلّمه، تركها

تمضي ولم يعترض طريقها. ولكنّها لم تحتمل إهاناته فقررت الردّ عليه، التفتت بسرعة إليه وصرخت:

- اسمي وطن... لن تمحوه من ذاكرتي... لست حذاءً لأرمى، أنا وطن، لي كيان مستقل عنكما، لي ذاكرة لن تمحوها من حياتي.

انبهر بجرأتها، هي التي كانت قبل سنوات بريئة مطيعة لا تعص أمراً ولا تمتنع عن أيّ فعلٍ تؤمر به، تسمع الإهانة وتقابلها بالصمت الذي يطبق عليها وعلى حياتها، ما الذي غيّرها لتصرخ في وجه أعتى مقاتلي داعش وأقواهم.

عادت إلى البيت تفكّر في إهانة تلقّتها للتو، تفكّر في الردّ السريع الذي هاجمته به، سعدت بشجاعتها وجرأتها

العفوية التي هي نفسها اندهشت منها. كانت سعيدة لأنها لم تصمت كعادتها ولن تصمت بتاتاً.

خلعت ملابسها لتلبس منامتها نظرت إلى الندوب في أنحاء جسدها، لم تشف بعد وربما لن تشفى العمر كلّه، ستبقى ندوب جسدها شاهدة على إجرام القطيع هنا، وستقف أمام الله تشتكي ظلم عباده وتطلب منه الثأر لها. لبست على عجلٍ وارتمت على سريرها تفكّر في هذا المخلوق الذي ظهر لها فجأة من تحت سابع أرض وتارة بالحرب التي ستخوضها ضدّ الجميع.

لم يستسلم مالك لصراخها بل صار يفاجئها كلّ يومٍ قبل وصولها ساحة التدريب أو حين العودة منها، وكأنّه على موعدٍ معها، كانت تتهرّب منه وتهرب من نظراته الثقيلة عليها. هناك التقته خلف شجرة الجوز، ربّما يأتي إلى هنا مراراً وتكراراً، يلتقط حبّات الجوز ويقشّر الحبّة بسكينته،

أعطاها بضع حبّاتٍ من الجوز، لم تأخذهم بسبب إهانته، ابتسم لها ولم يكرر لها الطلب. لم تعرف من جاء إلى هنا أوّلاً، كلّ ما تعرفه أنه الآن هنا، وحدهما خلف شجرة الجوز، ينظران إلى المكان ذاته، التلّة الكبيرة، هل هدفه كهدفها؟ هي لا تعتقد ذلك فهو من قادة داعش، لا يمكن أن يفكّر مثلها، قطع الصمت هو بسؤاله:

- منذ متى تأتين إلى هنا؟
- منذ فترة قليلة.
- ولماذا؟
- لا دخل لك.

ضحك بجنون حتّى كاد يقع وقال لها:

- يا صغيرتي ألا ترين القناصة على أسطح الأبنية.

- أراها كلّ يوم، وأرى التلّة أيضاً، ربما ذات يومٍ سأراها لوحدها وأهرب إلى هناك.

- ستموتين.

- أموت وأنا في طريقي للحريّة...خيرٌ لي من الموت في سجونكم.

- لكنك لست في السجن الآن.

- المدينة كلّها سجن كبير...

- وهناك... خلف التلّة.

- هناك الأمان والحريّة.. هناك موطني الذي لن يبخل باحتضاني، أنا جزء من المدينة والمدينة جزء مني. أمتار قليلة تفصلني عن الحياة.

أدركت أخيراً أنه كان يتتبعها ولكن لا تعلم لماذا؟ أدركت أنّه وراءها أينما رحلت، خافت على نفسها من مالك ولم تعرف السرّ من ذلك، كان يكتنفه الغموض بطريقة غريبة ومع ذلك كانت تخبره بكلّ شيء كأنّه حامي ديارها.

أراد تحدّيها ومبارزتها فلم تمانع بذلك، وقفا معاً مقابل بعضهما، نظرت إليه بتحدٍ حينما نظر إليها بقوّة. ركضت إليه سريعاً وقفزت عليه بالسيف لو لم يخفض رأسه لكانت عاجلته بضربة قاتلة، أكانت تنتقم من مالك أم من داعش كلّها؟ هل أرادت قتله ليخفّ نار الثأر من صدرها؟ رمى السيف جانباً واقترب منها. سرق السيف من يدها برشاقة دون أن تنتبه له، رماه أرضاً قائلاً لها:

- السيف لم يخلق للجميلات أمثالك.
- ولم أخلق لأكون جارية لأمثالكم.

جلست على حافة بالقرب من الجدار صامتة في حين جلس بجانبها وبدأا حديثاً لم ينته بسرعة، كان الحديث يدور عن داعش ما بين الماضي والحاضر والمستقبل. سألته وهي مستغرقة بكلامه:

- ماذا لو انتصرت داعش؟ أوليس التاريخ يكتبه المنتصر على الدوام.

- سيكتب حينها أنّها كانت من أرحم الراحمين، لم يقتلوا أسيراً ولم يسبوا امرأة ولم يعدموا طفلاً، لم يحرقوا زرعاً ولم يقطعوا شجراً، سيكتب أن الناس أتوهم طائعين من شتّى بقاع المعمورة، فنشروا العلم واحتضنوا العلماء في حين كانت البلاد غارقة في الجهل والظلام.

- تتكلّم عنهم وكأنك لست منهم.

ضحك ولم يعقّب على كلامها، اكتفى بصمت مع ابتسامة. نظرت إليه باندهاش وكأنّها لا تكلّم واحداً منهم، وكأنّه معها. قاطع تفكيرها حين قال لها:

– السرعة ستكون عجيبة، سيُنسى بها كلّ شيء، ستُنسى الآلام والمجازر، لن يتذكّر أحد هذه الأحداث، أو ربّما سيتناسون ما أصابهم، فلا أحد يهوى تذكيره بألمٍ كان فيه، سيتذكرون التاريخ الحديث فقط، وكلّ ما مضى سيرمى بحاوية الذكرياتِ لأناسٍ عاشوها فقط.

ناقشته كثيراً ذاك النهار وكأنّه ابن أمّها وأبيها، ولأوّل مرّة وطن لا تخاف ولا تخش أمراً بل كانت تقترب من الحقائق شيئاً فشيئاً. بغمضة عين ودقّة قلبٍ وبابتسامة منه

أفضت عن كلّ ما في جعبتها من قصص لداعش وأسرار تعرفها، حكت له عن روايات كثيرة لم ترو بعد إلا إليه فقط.

بدأت مناظراتهم كلّ يوم تزداد وتزداد حدّة المناقشات، هي تتكلّم وهو يبتسم، يناقشها تقاطعه، تبكي يصمت، يدافع تصرخ، تهاجم يدير وجهه عنها.

التقيا مرةّ أخرى عند التلّة ولكن هذه المرّة بموعد وليس صدفة. اقترب

منها قائلاً لها:

- هل ما زلت تحلمين بالإبحار إلى هناك. إلى الشطّ الآخر من الحياة.

- نعم وسأبقى في انتظار تحقيق معجزة توصلني إلى هناك.

- زمن المعجزات قد ولّى منذ زمن... سأقطع لك عهداً بإرسالك إلى هناك دون أن يكون عليك أيّ خطر.

- كيف ذلك؟

- ستعرفين كلّ شيء في وقته.

كل يوم كانا يلتقيان هنا، هي تحلم وهو يقطع لها العهود، أحبّت فيه رجولته ولكنّه كان دائم البعد عنها، لم يقترب منها ولم يحاول ذلك أبداً، أراد الحفاظ عليها بينما هي كانت تحاول الهروب منه ولكنّها كانت تشعر بانجذاب شديد إليه، كانت تشعر بامتلاكه لها وبأنّها أسيرة له. خشيت أن يلاقي ذات المصير الذي لحق بنمر، خشيت عليه من إعدام يفتك به إن عرفوا ذلك. عرف عنها كلّ شيء حتّى تفكيرها بالانتقام أخبرته به.

كانت صورة نمر لا تفارقها وحين تجمع بينه وبين مالك تراهما متشابهان، ولكن تخشى على الأخير من شرّ يقترب منه بسببها، أفصحت له عن نوبات الخوف التي تجتاحها فطمأنها بأنه استحالة الاقتراب منه فهو القائد الأعلى هنا. ولكن ذلك كان يخيفها فكلامه عنهم لا يظهر ذلك، بل يظهر بأنّه العدو الأكبر لهم.

استندت إلى جذع شجرة الجوز تتمنى موت القناصة جميعهم كي تصل إلى هناك. اقترب منها ووقف خلفها. قالت دون أن تلتفت إليه:

- كيف تعرف بوجودي هنا؟
- خطواتك في قلبي تدلّني عليك.
- مالك؟
- قلب مالك.

- سأذهب إلى هناك أخيراً في مهمّة جهادية قد أوكلت إليّ

- ظللت عمراً تنتظرين السعادة، أتأخذينها وهي مغلّفة بالآلام؟ تصلين إلى هناك بعد أمنيات كثيرة لتموتي أشلاء متقطّعة.

- سأراها وأمتّع عيناي بمرآها، سأمشي في شوارعها أخيراً.

- وستفجّرين مساجدها وستلتحم دمائك مع دماء مئات الأبرياء.

- ....

- هل سيكون خلاصك من هنا في أن تعطي ظهرك للوطن الكبير... لا تختلفين عنهم في ذلك يا وطن... فأنت الأخرى ستنحرينه وستذبحينه كما فعلوا هم.

- هو نحرني منذ زمن، حين لم يستعدني منهم.

- ومع ذلك، وطننا ليس مثلهم... سيقاضيك بتهمة تآمرك عليه.. سترعبك نظرات أطفاله الباحثة في عينيك عن أمان وأحلام.

- انتهيت؟

- نعم.

- سأرحل في الساعة السادسة صباحاً.

تركته وهو يعلم أنّ وطن لن تقدم على ذلك. فهي جزء من الوطن الكبير ولا يمكن أن تقتل الحياة التي بها تحيى. مشت بدون أن تلتفت إليه كي لا ترجعها نظراته القاسية المعاتبة لها.

في الصباح غادرت على عجلٍ بعد أن تحزّمت بحزامٍ ناسف، وصلت إلى بيته طرقته ففتحه مرتدياً منامته قالت له:

- أتيت إليك مودّعة وسأعود إليك حاملة كأس النصر.

- كيف ذلك؟

- ستعرف حين تراني على بابك فرحة لنصر تحقق لي.

اطمئن قلبه وابتسم لها فهو يدرك أنها لن تجرؤ على سرقة الأفراح من وطنها. لن تضع السكين على عنقه ولن تبتر أصابع الأمل فيه.

خرجت أخيراً من السجن الكبير بإرادتهم وتحت أعينهم، فتحوا لها الأبواب المغلقة، وسارت واثقة الخطى، حين تجاوزت المدينة الكبيرة، التفتت إليها فرأتها كما عهدتها تغطّ في نومٍ عميق، غارقة في الظلام، رياح الخوف تعبث بها،

تذكّرت بدقيقة آلامها هناك وأعطت وعداً لذاتها أن تقطع حبل الآلام، ستطهّر المدينة من جميع الأدران التي علقت بها.

مشت في شوارع دمشق تائهة بعد أنّ حدّثتني لملاقاتها في حديقة عامّة، تنفّست هواء الوطن لأوّل مرة دون أن تخاف شيئاً أو تخشاه، قطفت الياسمين وقبلته باسمة، فاليوم هو بياض حظّها وهروب تعاستها منها. جاءتني مثقلة بالهموم، مكبّلة بالجراح، مقيّدة بأغلالهم الثقيلة. أخبرتني برواية أرهقتني وطغت على أفكاري فقتلت كلّ شيء حيّ فيّ.

أخبرتني بعد أن جهّزت حقيبتها ووقفت لوداعي وكأنني لن أراها سوى هذه المرة

وقالت لي:

– حزني لم يكن حزناً عادياً، لم أبحث عن كتف أبكي عليه، ولم أبحث عن حضن يحميني ولا أذن تسمعني،

كنت أتوسّل فقط تركي وشأني، من أخبرهم أن صدري متين وظهري جدار مكين، من أخبرهم أن روحي لا يتغيّر لونها، وقلبي صامد لا يكسر.

- لن يشعروا بهذه المشاعر، فقلوبهم قاسية لا تلين، ولن تلين.

- سنا يا صديقتي إن أهلكتك الحياة وصرت هناك، إن وضعتك الحياة مكاني يوماً، اقتربي من مالك وأخبريه عنّي، أخبريه بمحاولتي الصبر ولم أفلح، ستكتبين الرواية وستهاجمك داعش، اهربي حينها إلى مالك ، فهو رجل في زمنٍ قلّ فيه الرجال. مالك منهم وليس منهم. معادلة صعبة بالنسبة لكِ، ولكن حين تعرفينه ستدركين ذلك. آليّة تفكيره غريبة بعض الشيء.

- ذاكرتك فيها أحداث رهيبة كذاكرة عجوز بائسة أنهكتها الحياة وفرّقتها الأيّام فباتت تحتفظ بكل ما هو سيء.

ابتسمت ببرود ثم وضعت يدها على كتفي قائلة لي:

– ليتني الوحيدة التي كنت أعاني هناك فهذه ليست روايتي لوحدي يا صديقتي، هي رواية آلام كثيرة في دولة الفجور، مسموح للقادة كلّ شيء من نساء وخمور وفواحش، ونحن من؟ نحن لا شيء بالنسبة لهم، أرقام تزداد كلّ يوم ورؤوس تتدحرج بلا سبب، ودماء تنزف تغرق الأراضي، رايات سوداء ملئت بيوتنا، والكلاب تنبح كلّ يومٍ تبحث عن أجسادٍ تلتهمها دون أن تدري بأنّ أرواحها تبحث عن جسدها.

أخذت حقيبتها ومشت. ناديتها:

– ماذا ستفعلين؟

التفتت ووقفت في مكانها وقالت:

– خطوة واحدة ينتهي كلّ شيء، خطوة واحدة قد يبدأ كل شيء. الرحلة ستنتهي اليوم، تابعي التلفاز وستعرفين منه كل شيء.

– خطوة واحدة ينتهي كلّ شيء، خطوة واحدة قد يبدأ كل شيء، فاحذري في خطواتك. لأنك إن لم تعدّي آثار خطواتك ستهلكين.

مشت وطن دون وداعي، أخذت قلبي الصغير معها ووضعت في ذاكرتي آلاماً عديدة.

رحلت وطن عنّي وعادت إلى المدينة كما خرجت منها، تجوّلت في أحيائها قاطبة ثم وصلت إلى القصر الكبير، منعها الحارس من دخوله أخبرته بمهمّتها الموكلة إليها وعليها

مقابلة القادة بأسرع وقت. دخلت بإرادته وهي تتذكّر طفولتها هنا وخروجها من هنا. كانت الذكريات تهاجمها في آخر محطّات حياتها، عند الأرجوحة وقفت تنظر إلى نافذة غرفتها حيث كانت تطلّ منها، أوصلها الحارس إلى القصر قاطعاً الممشى الطويل المظلم واصلاً إلى قاعة الاجتماع. أدخلها بسرعة بعد أن استأذن من قائده.

دخلت وطن إلى القاعة وفيها سبعة من قادة داعش من بينهم أميرها ووالدها. نظرت إلى الجميع بعين الغضب ونظرات الحقد تطل من عينيها. كانت هذه آخر نظرات وطن للجميع. وكانت آخر نظرات الجميع للوطن الصغير والكبير.

ضغطت على زرّ المفجّر وتطايرت الأشلاء وانهار السقف مع القصر الكبير. لم يعرف أحد ماذا حدث هناك، كلّ وسيلة إعلامية تناقلت الخبر بشكلٍ مختلف. ولم يعرف مالك ماذا قالت لهم في عتابها الأخير. لا أحد يعرف ما هي

رسالتها التي وجّهتها لهم، فلم ينجو أحد ليخبرنا بما حدث. مالك كان يعرف ذلك وكان على واحدٍ من المدينة أنّ يضحي لأمرٍ كهذا. فالحرب بدون تضحية لا نصر لها. وهو من سهّل لها أمر دخولها إلى هناك. وفي قلبه غصّة ولوعة عليها.

تستمر المأساة في المدينة ويستمرّ الغدر والقتل والإرهاب والاختطاف ووطن لم تزل هنا

* * * * * *

(تمّت)

سنا

كان لوطني ثقوب كثيرة كقصبة الناي، ولكن لم يجد إنساناً يستطيع العزف على تلك الثقوب... استطاعوا بهمجية توسعتها ليدخل العذاب مضاعفاً.

وطني رواية كبيرة لم يقرأها أحد، أهملوها ورموها في الشوارع. وكل واحدٍ منهم يهرب من مسؤولية الحفاظ عليها ولم يقرأها أحد.

وطني لوحة باهرة فيها ألوانٌ شتّى... علّقوها على أكبر الجدران وعلّقوا عليها قماش أسود كبير كي لا يزعجهم جمالها الأخّاذ.

(سنا)

لم أكن أتوقعّ أنّ وطن كوطني سيهديني دموعاً قبل النوم. لم يكن يعتقد أحد بأنه سيأتي اليوم الذي يكون فيه ساحة صراع واقتتال وستجري أنهار من الدماء في شوارعه، اصطبغ كلّ شيء بالأحمر القاني إلّا الياسمين فهو نقاء سوريّة وعزتها لا يمكن أن يطرأ عليه أيّ تغيير. في الوقت الذي كنّا نعيش ونذهب ونضحك كانوا هم ينسجون الخطط للإيقاع بوطننا، لنحرنا وقتلنا، كانوا يعملون ليل نهار لإنجاح خططهم، ولم نكن نعرف ماذا يخبّئون لنا؟ لم نكن نعرف أن هناك من يقاسي العذاب ألواناً وكنّا ننتحب وطننا بسبب غلاء الأسعار والتفجيرات الانتحارية، ولكننا أدركنا أننا نعيش في الجنة وهم في الجحيم يعيشون. أما آن للوطن الكبير أن يستعيد ابنته المنحرفة عنه..

(سنا)

مشيت في كلّ الدروب

تائهة فلم أنتبه إلى أصوات القذائف وهي تدكّ أسوار وحصون دمشق، ضجيج أفكاري كاد أن يمزّق رأسي، وهناك دمعة يتيمة عالقة تنتظر الإذن منّي بالانسكاب. ولكنّ الفؤاد كان يحترق ويبكي أكثر من دمعتي.

في ذهني أمطار وبرق ودويّ للرعد وكأنّ عاصفة قد قبعت به، الناس يسرعون خوفاً من القذائف، يرتطمون بي بينما أنا أمشي ببطء على حافة الرصيف، الناس كثيرون ولكنني لا أرى سواي تمشي في سكون، أمشي ولا أعلم إلى أين راحلة؟ أمشي فاقدة المشاعر والأحاسيس. لم أبك ولكن الدموع تجمهرت في عيني، لم أتألّم ولكن الألم يسكن أنفاسي، لم أيأس ولكنّي أراه يحكم عالمي، لم أفقد الأمل ولكنني لا أرى بقعة ضوءٍ واحدة في دربي. البرد يعمّ الشوارع ولكن لم

أشعر به من دفء أنفاسي، وكأن سكين غرست في قلبي ولا أحد يراها سواي، كنت أنزف ولكن لم أتألّم، دون شعور نزف قلبي، الجميع شعر بأصوات القذائف وأنا لم أشعر فما زالت خطواتي على رصيف الوطن هادئة ترثي وطناً يحتضر. جلست على قارعة الرصيف أحاول لملمة شتاتي المنثور ولكنني عجزت عن جمعه. لست سوى بقايا جروح وشتات متناثر تبعثرني الرياح ويمزّقني الإعصار دون أن أشعر بذلك، وقفت ومشيت بهدوء وسكينة حتّى وصلت إلى شجرة الياسمين، التي كان يذوب قلبي بين أضلعي كلّما مررت من جانبها، مددت يدي لقطف واحدة منها ولكنّ عبيرها أخجلني فتركتها تعانق دفء وطنها، تذكّرت وطن وكلمتها (الوطن لا يَسرق، الوطن يُسرق) ولن أشارك بتاتاً بسرقته مهما حييت، فالوردة ستقف يوماً يوم القيامة تشتكي إلى خالقها قتلها وهي تعيش في حضن الوطن، ونحن سنشتكي إلى الله أعداداً لا

تحص قتلونا ونحن نرتاح في ملاذ الوطن، قتلوا الوطن قبل أن يقتلونا، وفي كلّ يومٍ يجرّدونا منه آلاف المرّات، هنا حرزها من خوف يطالها ويدٍ تسرق عذريّتها. تركتها بعد أن استمتعت بما يكفي من أريجها وفي ذهني خيالات لأسراب داعش القويّة وهي تهاجم أرض الوطن.

عدت إلى البيت منهكة خائرة القوى وارتميت على السرير، علّي أن أستريح من عبء وضعته وطن في خلدي وذهبت.

صياح أمّي كعادتها يتسبب لي بإزعاج مميت، ذهبت إلى باب غرفتي ووقفت أمامه صارخة في وجهها:

- أرجوك أمّي... مرّة واحدة فقط دعيني أدخل البيت دون عتابك القاسي، ودون صراخك الذي بات يزعجني كثيراً.

وأغلقت الباب بقوّة كي أهرب من نبرات صوتها العالية والصاخبة بخوفٍ عليّ لا يحتمل.

فتحت حاسبي المحمول وبدأت بالكتابة ، سطرّت في الأعلى (وطن) وبدأت أكتب فلم أكمل السطر الأوّل حتّى أحسست بإرهاق شديد إذ كان في عقلي كميّات هائلة من الأفكار الضخمة، أطفأت الجهاز وارتميت على السرير، عانقت وسادتي وكأنني أهرب إليها من هذا العالم المرعب، نمت وأنا أحلم بشهرة واسعة من هذه الرواية، أغمضت عيني ليتراءى لي سلّم النجاح وأنا أصعد إليه درجة تلو الدرجة، لم أفكّر أنّ شهرتي ناتجة عن آلام وعذاب لأشخاص كثر، هي ليست حكاية وطن فحسب إنّما هي حكاية الوطن الكبير.

في صباح اليوم التالي لم يزعجني منبّه هاتفي ولم تزعجني صيحات والدتي، أفقت بهدوء أحاول استحضار ما جرى البارحة، شعرت للوهلة الأولى أنني كنت هناك وعدت

للتو إلى هنا، كابوس مرعب أيقظني كاد أن يقطع حبل الحياة فيّ، شعرت بغربة هنا وبحياة لست أملكها وكأنّ وطن سرقت معها حياتي وأعطتني حياتها. حملت هاتفي وجدته مغلقاً. نفدت بطاريته ونسيت أن أشحنه. وضعته على مقبس الكهرباء. وجلست على سريري أتأمّل وجودي هل أنا هناك؟ أم هنا؟ فرغت ذاكرتي من كلّ ذكرياتي وحلّت محلها وطن وذكرياتها القاسية، إن كنت هنا أين والدتي وصراخها الحاد؟ أيعقل أنني رحت إلى هناك دون قصدٍ منّي، ولكن هذه غرفتي وهذا أثاثها، كم الساعة الآن؟ لا أدر لأن الهاتف مغلق. أمسكت رأسي في يدي أحاول تخفيف ضجيجه قليله. حاولت العودة إلى النوم فلم أفلح في ذلك، فتحت هاتفي فوجدت رسالة من المصرف تبلغني بتحويل رصيد كبير إلى حسابي. وفت بوعدها وطن ولم تخلف به، كانت الرسالة قد أرسلتها فور وصولي إلى البيت.

عرفت أخيراً أني لست هناك إنّما هنا ولكنّ عقلي بات يسافر كثيراً فيرميني في أزقّة الروايات التي أسمعها وأكتبها.

لن أخرج من الغرفة قبل إتمامها، فتحت جهازي الحاسوبي وبدأت أكتب ما فاض به قلمي، كنت أكتب حيناً وأستمع إلى جهاز المشغّل حينا آخر وأشاهد مقاطع الفيديو التي أرسلتها لي وطن أحياناً أخرى، كانت المقاطع قاسية جداً لم أحتمل مشاهدتها في البداية ولكنني أجبرت على ذلك كي تبدو الرواية جزءاً لا يتجزّأ من الواقع. خطرت على بالي وطن حين رأت نمراً مجهّزاً للإعدام بالسيف أمامها، كيف احتملت رؤيته على هذا النحو دون أن تنهار وهو الحبيب الأوّل والأخير لها.

اقتحمت والدتي غرفتي كعادتها دون الاستئذان تطالبني أن أخرج من سجني وأساعدها في تنظيف البيت وغسل الصحون وإعداد طعام الإفطار، كلّ ذلك قالته دفعة واحدة

وبنبرة مليئة بالعصبيّة، قمت مرغمة أساعدها في كلّ شيء تاركة الحاسوب مفتوحاً كي أواصل ما بدأت به، نظفت البيت معها وغسلت الصحون وكلّ ذلك وعقلي شارد في وطن ماذا تفعل الآن؟ وماذا ستفعل لاحقاً؟ أخبرتني أنّ عليها مهمة تريد إتمامها ولم أعرف ما هي؟ ليتها أخبرتني كي أدوّنها في نهاية الرواية.

انتهيت من كلّ ما أُمرت به من والدتي ودخلت عالمي لأكتب وأعيش الألم من جديد مع أشخاص افتراضيين ولدوا من عالم واقعي لا افتراضي. نادتني أمّي كعادتها بصوتها الصاخب والمخيف وكأنّ هناك حرباً طاحنة تدور رحاها في بيتنا، أو ربّما كانت تنادي لمصيبة ما، في البداية اعتقدت بأنني لم أنفّذ جميع طلباتها بسبب شرود عقلي، فتركت ما بيدي بانزعاج بادٍ على ملامحي وخرجت من غرفتي أصرخ في وجهها كي تدعني أكمل ما عزمت على إكماله إلى

النهاية. وقفت وراءها أستطلع الخبر كانت شاشة التلفاز مليئة بالدماء وأعضاء مبتورة محروقة ومبنى منهار بالكامل مازالت النيران تلتهمه وتطغى عليه.

وفي الأسفل على الشريط الأحمر كان مكتوب (فتاة من داعش تفجّر نفسها وسبعة من قادة داعش ومن بينهم والدها) وقفت حائرة مصدومة بالخبر والمشاهد، لم أكن على علم بأنّها ستنتهي حياتها هكذا، لم تخبرني بذلك. أكانت هذه المهمّة التي كان عليها تنفيذها بالسرعة القصوى؟ كيف كانت مشاعرها وهي تضغط على زرّ الانتقام من والدها أوّلاً ومن مولاها ثانياً ومن الجميع ثالثاً، انسكب الدمع مدراراً على خديّ وأنا أنتحب صديقة عرفتها قليلاً وجلست معها لساعات طويلة، مؤلم أن يكون ثمن النجاة الوحيد من أيّ معركة أو حرب هي نفسك. جعلت ذاتها الضحيّة الأولى هناك لتحرر المدينة من جحيمهم. كان فوزها الوحيد وهروبها من هناك

بقتلهم معها. هي مقتولةٌ مقتولة فلتقتلهم معها قبل أن تُقتل لوحدها، كانوا قد أرسلوها لتنفيذ مهمّة انتحاريّة هنا فعادت إليهم ونفذت المهمة عندهم، فعبوة التفجير تلك هم من صنعوها وهم أولى بها من غيرهم. هكذا كان المذيع يتحدّث بنبرته الهادئة. التفتت إليّ والدتي متسائلة عن سبب بكائي. وأنا التي كنت أشاهد كلّ يوم معها الأخبار مجبرة دون الرغبة لي بذلك، كاد قلبي ينفطر لمرآهم ولكن هيهات أن تنسكب منّي عبرةٍ واحدة. ضحكت والدتي على غبائي قائلة لي:

- كأنك أصبحت مثلي تسمعين الأخبار بعكس ما وردت، لم تقرأي ولم تسمعي الخبر جيّداً، داعش هم من قُتلوا وليس العكس، هناك في الجنّة ستنتظرهم الحور العين.

وقهقهتْ عالياً، أعادتني مداخلة أمّي إلى الواقع، نظرت إليها مراراً وكأنني لا أعي كلامها، قائلة في سرّي (ما يبكيني وطن التي ظلّت تحلم بالوطن الكبير وبالحريّة فيه حتّى قتلت ذاتها على رصيف أحلامٍ لم تنضج بعد، قتلت أحلامها قبل أن تقتل نفسها، أرادت أيسر الطرق للهروب من قبضتهم فأخذتهم معها سعيدة بانتصارها في العالم الآخر).

تركتها تثرثر في آخر الأخبار وكأنّها تفهم ما يحدث على الساحة الدمويّة، وهرعت إلى غرفتي حملت هاتفي وكأنني على موعد مع من فيه وكأنّ قلبي قد نبض لرسالة فيه، إحساسي كان في مكانه الصحيح، وجدت رسالة من وطن ربّما أرسلتها البارحة قبل تنفيذ مهمّتها إذ شبكة الهاتف كانت سيئة للغاية، نصّ الرسالة: (سترين الليلة كلّ شيء على التلفاز، أرجو ألّا يضعفك ذلك عن إتمام ما اتفقنا عليه، إن كنت قد رحلت أنا ولم أعد موجودة فالوطن ما زال موجوداً

يتنفّس همجيّتهم وعدوانهم، إن كنت قد رحلت فأوجاع الكثيرين لم ترحل، غيري ما زال باقٍ هناك يقبع في سجون تحت أرض حمراء مكبّلون بأصفاد الخوف والإرهاب).

تذكّرت مالك وحديثها الدائم عنه، ربّما سيسعفني بالمشاهد النهائيّة من الرواية، سيخبرني بها بطريقته السحريّة في الكلام كما حدّثتني عنه، حاولت الاتصال به مراراً ولكن في كلّ مرّة ينقطع الاتصال ولا يجيب. كنت بحاجة إلى عابرٍ لا أعرفه أخبره بما يمرّ بي من لوعة وأسى، أبكي على صدره شتات عقلي وفكري، يطبطب على قلبي ويمنحني الأمان والأمل. ثمّ يرحل كما جاء. عدت إلى الاتصال به وما من مجيب، أيعقل أن تكون قد أعطتني رقماً خاطئاً أم أنّه في وضعٍ لا يسمح له بالرد.

لم أعد أطيق الخروج بتاتاً، سأكملها إلى نهايتها فهذا وعدٌ قد قطعته ولن أتراجع عنه. سأكون الضحيّة والجلّاد معاً،

سأتقمّص دور القاتل والمقتول، الجارية والسيّد، الظالم والمظلوم. سأجسد أنا كل الأبطال في روايتي.

سجنت نفسي في غرفتي أتقبّل توبيخ أمّي لي بروحٍ لم تعد تبالي بشيء، بتّ أتقبّل منها أيّ شيء فقط كي تتركني وشأني، زهدت من الحياة، لا أريد شيئاً سوى إتمامها، أجلس معها قليلاً أتابع نشرة الأخبار المسائيّة أوثّق ما يحدث فيها وأضيفه إلى الرواية.

نادتني أمّي ذات ليلة كنت منكبّة على الكتابة، هرعت إليها كي تصمت قليلاً فأعود إلى غرفتي. كانت الاحتفالات في التلفاز كبيرة وكان المشهد يتحدّث عن انتصار للجيش على أراضينا. قطعت أمي أهازيج الاحتفالات لتقول لي:

- لقد استعدنا المدينة الكبيرة من براثنهم. أصبحت لنا الآن، وها هم يحتفلون بتحقيق النصر.

فرح قلبي مع وجود بقايا للحزن فيه وخطر مالك على بالي فجأة، ماذا حدث له؟ هرعت إلى غرفتي أحاول الاتصال به ولكن دون جدوى، أيعقل أن يكون قد مات؟ لا أعتقد ذلك فهو بطل الحكاية الآن ولا يمكن أن يموت بسهولة. رميت هاتفي وعدت للكتابة.

أرهقتني هذه الرواية كثيراً، اقتلعت زهور قلبي وأحالته إلى خراب، قضت على أفكار عقلي لتحيلها أفكاراً قاتلة، أفكار سلبية تقهرني وتزيدني عذاباً لا ينتهي.

لياليّ حالكة السواد وأفكاري مشوّشة وخيالات تضني القلب وجعاً، توتر ملحوظ حتى بتّ جثّة تمشي وتأكل دون عقلها.

شهران فقط وكنت قد أنجزت المهمّة على أكمل وجه، كانت كما أريد وأرغب، خرجت من الغرفة سعيدة لإنهائها وفي القلب غصّة تكاد تخنقني، سعيدة لإكمالي إيّاها وحزينة

لأنّ صاحبتها ليست معي لتقرأها، كم تمنيّت لو كانت هنا لتقرأ آلامها ولتقرأ حروفي النابضة بعذابها. انتهت الرواية وانتهت آلام المدينة، ولكن ما زالت هناك مدن قابعة تحت سيطرتهم لم يكتب لها النجاة بعد، ما زالت هناك أوطان صغيرة تتألّم ونسوة يتجرّعن أصناف العذاب. ولكنّ القادم سيغدو أجمل وستتحرر باقي المدن جميعها، فلن نتركها لهم ولن نتركها لأي سافر يعتدي على تراب سوريّتنا الغالية.

في اليوم التالي خرجت ومعي ابنتي أحملها في أحضاني، خائفة عليها من يدٍ تسرقها وتغتال ما كتب فيها، أودعتها دار النشر واتفقنا على الربح والخسارة، وإن كانت الأرباح لا تهمّني بمقدار ما تهمّني الشهرة الواسعة وإيصال الرواية إلى كلّ مكان.

عدتُ إلى البيت والخوف تملّك قلبي حالفاً بالله ألّا يدعني أكمل أيّامي، بدأ الهلع ينهش ساعات نومي ويقتات

على ابتسامتي. كان الارتباك بادياً على ملامحي وشعرت أمّي بذلك منذ الوهلة الأولى، كان الفزع يشل تفكيري ويمنعني من التفكير بكلّ شيء، حتّى أردت الذهاب إلى هناك وأخذ الرواية ممتنعة عن نشرها، ولكن شيئاً ما كان يمنعني من فعل ذلك، شاردة الذهن على الدوام، أقضم أظافري، ألعب بشعري، أجلس وألعب برجلي بتوتّر ملحوظ لدى والدتي. رمت بسؤالها فجأة لعلّها تستلّ الجواب مني بلمحة عين:

- هل العشق هو من فعل بك كلّ هذا؟

فاجأني سؤالها وهمست في قلبي أين ابنتك من كلّ ما تدّعين يا أمّي؟ لو تدرين عن الأفكار التي تدور رحاها في خلدي ما كنت قد فكرت بما تقولينه، لكنتِ تركتِ النوم وهرعت إليّ تحمينني.

- لا شيء يا أمّي...لا العشق ولا غيره قادر على سلب راحتي منّي.

- ولكنني أراك عكس ما تقولين... لا تعذبيني أكثر من ذلك... ماذا جرى لقلبي الصغير؟

- خائفة فحسب من ضياع الوطن منّا، من تهديدات نتلقّاها كلّ يومٍ.

- لن يصل أحد إلى هنا، فأرض الشام أرض مباركة لا أحد يقترب منها.

- كلّ تراب الوطن تمثّل الشام بالنسبة لي. أما آن لنا أن نستريح من عذاب لا قدرة لنا بتجاوزه، لقد هرمنا وأعمارنا لم تتجاوز الثلاثين بعد .

صمتت أمّي عن الكلام وقفت أنظر إليها ثم ذهبت إلى غرفتي، جلست فيها أتصفّح حسابي، جاءني اتصال من دار

النشر يخبرني أن الرواية باتت جاهزة، كنت أريد أن أصرخ (لا ... لا أريدها) ولكن النجاح والشهرة كانا يدفعانني لأصعد معهما وأخبره أنني قادمة إليه غداً لآخذ نسخاً منها بينما تقوم دار النشر بعمليّة التوزيع في المكتبات.

لم يزرني النوم إلّا في الساعة الثالثة فجراً لأنّ عقلي كان مشغولاً بها وبالتعقيدات التي سأصادفها، بالرغم أنني كنت في بدايتها متحمّسة إلا أنني الآن خائفة.

جاءني الصباح خجولاً تختبئ شمسه خلف غيومٍ من الآلام، جاءني ليخبرني بيوم النجاح فلأسعد معه ولأنسى نهاية هذه الحكاية، أفقت وجسدي يطلب المزيد من النوم، لم أستمع لإلحاحه المتزايد وفضلت الاستيقاظ والنهوض من السرير، ارتديت ملابسي وخرجت من الغرفة أتناول مع أمّي إفطار الصباح، نظرت إليّ نظرات أفهمها ستبدأ أسئلة لا تنته إلا بخروجي من هنا هرباً منها فبدأت بأوّل سؤال:

- أراك ذاهبة؟
- نعم.
- إلى أين؟
- لديّ عمل أقوم به.
- ألم تسمعي بالتفجير الذي حصل فجر اليوم؟
- لم أسمع شيئاً... البلاد مليئة بتفجيرات عديدة...لا يعقل أن أسجن نفسي هنا خوفاً من تفجيرٍ ربّما لا يقصدني.
- كل الحرب لا تقصدنا ولكنّها حصدت أرواحاً كثيرة وأخذت قلوبنا معهم.

كانت تتحدّث بينما كنت جالسة أتناول فطوري أردّ عليها بكلماتٍ مختصرة. لم تفلح في إقناعي بعدم الذهاب،

بينما أنا فضّلت مجاراتها وتناولت حقيبتي، قبّلتها وذهبت، سمعتها تناديني وأنا أصفق الباب خلفي.

نزلت إلى الشارع تذكّرت السبب الذي أنا إليه راحلة، لماذا استعجل الذهاب؟ إلى خراب عمري؟ أم إلى نجاحٍ دائم؟ أخاف الندم على تسرّعي وأخاف من شهرة لا أستحقها.

وصلت إلى دار النشر وجلست مع مديرها نتحدّث عن وطن وطمأنني ألا خوف عليّ من كلّ ما كتبت فالأقلام لم تترك شيئاً إلى وقد كتبت عنه. خرجت من عنده سعيدة لرؤية أوّل ابنة لي في حضني، لكنني تذكّرت بطلتها فرجعت الكآبة لقلبي الصغير.

أيعقل أن تتحقق الأحلام هكذا في ظلّ الخوف وانعدام الأمان؟ الحلم الأوّل لي بات واقعاً مرعباً، واقعاً لا أرغبه، فلا يمكنني الفرح وقد كتبتها من جراحات امرأة سلبوا منها طفولتها وأودعوها عذابات لا تنتهي.

وصلت إلى الحديقة ذاتها التي التقيت فيها وطن ومشيت بها أتذكّر يوماً كان طويلاً وشاقّاً لكلينا، كانت فرحتي ناقصة ينقصها مالك، هو الحلقة المفقودة في كلّ ما كتبت يداي، أخرجت هاتفي من حقيبتي وحاولت الاتصال بمالك مجدّداً، كنت على يقين باستحالة ردّه على مكالماتي، ولكن الأمل كان يحدوني للاتصال به، أرجعت الهاتف إلى الحقيبة وعقلي بمالك الشخصية المجهولة الفريدة من نوعها. لماذا يا ترى وطن أودعته كلّ أسرارها وهو قائد لدى أعدائها؟ ولماذا كانت تثق به كثيراً وهو من أهانها في أوّل لقاء لهما؟

عدت إلى البيت مرهقة من رواية قد اكتملت في الكتاب وبدأت عندي، دخلت البيت على رؤوس أصابعي كي لا تبدأ أمي تحقيقاتها معي، حمدت الله أنها لم تكن في البيت ذاك الوقت لكانت جعلت يومي كابوساً مفزعاً.

دخلت غرفتي وارتديت منامتي، قفزت على سريري ملجئي من تعب الحياة وحملت هاتفي، بدأت أسوّق للرواية بخوفٍ حيناً وبسعادة حيناً آخر، كتبت بعض الاقتباسات منها عبر برنامج الفيس بوك والمواقع الرسميّة الشهيرة، كنت أريد جذب أكبر عدد من القرّاء، وبالفعل وصلت الرواية لأعدادٍ كبيرة والكل كان يطلب مني شرائها، كنت سعيدة وزال الخوف مني بسهولة وأنا أرى إعجاب متابعيني بما كتبت والكلّ يستفسر عن وطن هل هي واقعيّة؟ أم لا؟

أحسست بشهرة لطالما حلمت بها وذلك بعد طباعة رواياتي الأربعة وأصبحت كاتبة تسعى للجدّ والنجاح، تسعى لإبراز نفسها في المؤتمرات الأدبية، كنت لا أدع مؤتمراً إلّا وحضرته فنسيت بذلك سبب شهرتي ونجاحي، فرحتي بالنجاح أنستني سبب الوصول إليه.

بدأت انتصارات الوطن في تزايد وشهرتي كانت تتزايد مع تلك الانتصارات، أكملت مشواري الأدبي كما بدأته وكما خططت له. نست أمّي خوفها علي وكانت سعيدة للغاية وهي ترى ابنتها تتربّع على عرش الأدب والكل يطلب منها مقابلاتٍ عن روايتها الأخيرة.

لم تنته روايتي هنا بل انتهى فصل النجاح فقط وابتدأ فصل الخوف حين وجدت رسالة من رقمٍ لا أعرفه ، تذكّرت ما قالته وطن بأنّهم قد وصلوا إلى تكنولوجية متقدّمة جدّاً، لا يهابون شيئاً، وإن كنّا في أيّ بقعة في العالم سيعرفون طريقهم إلينا دون بذل أيّ جهد، فلهم في الدولة أعين كثيرة، ولن ييأسوا من أيّة مهمّة توكل إليهم.

أعدت قراءة الرسالة مرّات عديدة وفي كلّ مرّة أستشعر خوفاً لا أعرفه، أعرف أنني المقصودة والرسالة موجّهة إليّ، لم تكن خطأً مقصوداً، تحسست عنقي عشرات المرّات خائفة أن

يُجتثّ ما عليها، ابتلعت لعابي بصعوبة بالغة وارتجفت يداي، كان الخوف في تلك اللحظة أضعافاً مضاعفة عن الخوف من القذائف والتفجيرات، ربّما أكبر من خوف والدتي عليّ، لا أستطيع وصف مدى الخوف الذي انتابني وأنا أقرأ الرسالة بهمس يرعبني ويربكني ((يا أنت ... نعرف عنوانك... نعرف والدتك.. الرواية خطرٌ علينا فإن أنت أبقيتها في المكتبات قطعنا رأسك بسهولة بالغة كما يقتطع الحبل السري عن المولود الجديد، وإن أخذتيها من كافة المكتبات أبقيناك في مكانك آمنة مطمئنة لا يقترب منك أحد)) هذا نصّ رسالة التهديد الذي حيّرني وكان لزاماً عليّ أن أخاف.

حملت هاتفي لعلّ مالك قبلتي الصغيرة يجيب ولكنّه كالعادة فضّل الصمت عن الرد، حاولت البحث عنه بين أصدقاء وطن على الفيس بوك، كنت بحاجة ملحّة إليه، كان هو كأس الماء الذي أبحث عنه وأنا في بيداء مقفرة، أشعر

بظمأ شديد أريد الارتواء ومالك يبخل عليّ بالإجابة، لم أجد حتّى صفحة وطن، كانت الصفحة قد اختفت تماماً، ربّما وطن هي من حذفتها قبل موتها، للحظة أحسست بانهيار أضلعي منّي وكأن تلك الحكاية سراباً وهذه الحكاية كابوساً، لا أعرف عنه شيئاً لا نسبه ولا لقبه، لا أعرف سوى اسمه فكيف أستطيع البحث عنه، والعالم الإلكتروني عالمٌ شديد الضخامة.

انتبهت أمّي إلى الخوف الذي داهمني وشرودي الدائم، كأنني في حالة سكرٍ لا أصحو منها، سألتني مرّات عدّة عن السبب فكنت أهرب منها إلى غرفتي ملاذي من الجميع حتى من خوف أمي عليّ.

بدأت رسائل التهديد تجتاح هاتفي كلّ صباح وكلّ مساء، اتصالات مشبوها لأرقام غريبة من عقر داعش تهدد بقطع رأسي إن لم أمتثل لطلباتهم وأوامرهم والخوف قد شلّ

كلّ تفكير في رأسي. يريدونني جارية كوطن وأنا لن أكون إلا سيدة كما خلقت.

كان الأرق يزورني في كلّ الليالي أسهر وإياه، نفكّر بكل الدروب المغلقة والمفتوحة بآن معاً. لن أفعل ما يطلبونه منّي ولن أمنحهم رأسي ليقطعوه، لمعت في رأسي فكرة ألا وهي الذهاب إلى القيادة وإبلاغهم بأمر الرسائل ولكن الخوف كان كهاتفي الصغير لا يفارقني بتاتاً. الطريق إلى هناك طويل وربّما خسرت نفسي قبل الوصول إليه، بتفجيرٍ قد يودي بحياتي، برصاصة تستقرّ في جسدي، شعرت بوطن ووقوفها ليل نهار قرب الساتر الترابي ربّما الخوف ذاته الذي تملّكها تملّكني. ولكن كان عليّ البدء بمغامرة ربّما أنجو منها وربّما لا.

ترددت كثيراً قبل الذهاب في اليوم التالي ثمّ قررت التحدّي طالما الموت نهايتي فلأمت وأنا أبحث عن خيطٍ للنجاة بدلاً من خوفي الذي لا مفرّ منه ولا نجاة.

ارتديت ثيابي وخرجت باكراً قبل استيقاظ والدتي فتمنعني من المغادرة، صفقت الباب خلفي ونزلت السلالم بسرعة وصلت إلى الشارع، نظرت إلى شمس الصباح وهي تمدّني بدفء لا أشعر به، ولأوّل مرّة شوارع دمشق تخنقني وتربكني، لأوّل مرّة أسير بها مذعورة، لم أخش تفجيراتهم وقذائفهم البتّة، ولكن اليوم ينتابني خوف كبير جدّاً سيطر علي وسبب الآلام لجسدي، كنت أخشى حدوث شيء لم أكن مستعدّة له، مع أنني كنت أسير ويدي على قلبي قد جهزت نفسي لهلاك يستحقّني، أتلفّت خلفي كقطّة مذعورة خائفة من كلابٍ شاردة، وصلت إلى مقرّ القيادة وهنأت نفسي جسدي على السلامة.

دلفت إلى أوّل غرفة في الممر الكبير المظلم، وجلست على أوّل كرسي صادفني، متعبة من أفكار تراود رأسي، منهكة أبحث عن الأمان في بلاد لم يعد للأمان عنوان. استقبلني رجل الأمن بابتسامة وترحيب قد بدا على وجهه وسألني عن أحوالي ومشكلتي. قصصت عليه ما جئت إليه، كنت أتحدّث بخوفٍ يشلّني ودموع تحجّرت في مقلتي تشاهد ما يجري، تنتظر خفقان القلب ورجيفه لتنسكب على الوجنتين، مطرٌ يحيي القلوب ولا يحييني.

انتظر النهاية وهو قاطب الحاجبين يقاطعني وبدأ أسئلته التي أرهقتني بدلاً من اطمئناني وتركني وحيدة في غرفة باردة، قلبي هو الذي كان بارداً لأننا في منتصف الصيّف، أغلق الباب خلفه، ربّما فعل ذلك ليمنعني من الهروب إلى الجحيم بإرادتي.

بعد ساعة من الجلوس لوحدي أنظر إلى الساعة القديمة على الجدار، كنت أشترك فيها بانتظار وقتٍ لا ينتظرني ولا يعبأ بوجودي، أعدّ الثواني والدقائق وأتأمّل أن تكون رحيمة وتركض بسرعة ولكن إلى نجاتي لا إلى حتفي، دقّات قلبي تنبض هي والساعة وفي كلّ دقيقة تمر يسقط قلبي من مكانه خائفاً أن يموت قبل أن أصل إلى النهاية.

دخل الغرفة من كان معي وبرفقته أربع رجال من الشرطة، جلسوا بجانبي بعد إلقاء التحيّة وانهالوا عليّ بأسئلة كثيرة، بعضها كان سهلاً والبعض الآخر كنت استجمع ذاكرتي لأجيب. لم أكن على علمٍ باجتماعهم في الغرفة المجاورة من أجلي. لكن قراراتهم لم تكن رحيمة على قلبي الغض، بل كانت كاسرة لروحي وجسدي.

قالها رئيسهم بعد صمت لم يكن قصيراً:

- ستكون حمايتك أمراً صعباً للغاية، مهما حاولنا الدفاع عنك سيغتالونك أو يخطفونك، لذلك قد قررنا تزويجك لرجلٍ من رجالنا، ضابط في جيشنا، سيحميك ليل نهار، وإن جاءك اتصالٌ ما أخبريه به ولا تخافي. وبذلك نتمكّن من ملاحقة آخر فلول الإرهاب على أرضنا، بمساعدتكما لنا سنتمكّن من تطهير تراب سورية الغالية من الإرهاب.

لم أتوقّع قراراً صادماً كهذا، ماذا أخبر والدتي؟ خرجت من بيتها فتاة حائرة عدت ومعي عريسٍ لا أعرفه، لم أستطع الرفض ولا القبول، فذلك لحمايتي كما كانوا يدّعون، أيعقل أن أرفض؟ حينها سأكون وحيدة على رصيف الحياة أقاتل أناسٍ لا أعرفهم والغلبة لهم بالطبع، كان واقفاً معهم، عريض المنكبين، ضخم الجثّة، فاره الطول وكأنّه قادم من حلبة المصارعة، وكنت أمامه كقطّة وهو النمر، (المساعد يسار)

هكذا عرّفوني عليه، مدّ يده ليصافحني فمددت يدي واشتبكت اليدان لجزء من الثانية، سحبت يدي خوفاً من راحة يده الكبيرة وعيناي تنظران إلى عينيه، أحاول معرفته عن قرب.

طلبت منه الذهاب إلى بيتي أوّلاً لأخبر والدتي بالأمر وإن كنت أخاف مواجهتها في ذلك ولكن كان الأمر خارجاً عن سيطرتي يا أميّ.

مشى ومشيت خلفه فناداه القائد يأمره أن يمشي بجانبي فهو قد وجد لحمايتي، نزلنا معاً الأدراج وفتح باب سيّارته لي دون أن ينبس ببنت شفة، ركبت بجانبه خجلة من النظر إليه كي لا يتملّكه الغرور ويظن الظنون بأنني مولّهة به. كان يختلس النظر إليّ ما بين الفينة والأخرى. أشحت بوجهي عنه إلى النافذة وكأنهم جميعاً لا وجود لهم، عاد الاختناق إليّ مرّة أخرى حين فتحت النافذة، جاءني هواء دمشق محمّلاً بالهموم التي ضيّقت الخناق عليّ ولم ترحمني كابنة بارّة لها.

كنت مخيّرة ولم أكن مسيّرة، خياران صعبان اعترضا دربي الصغير، إما الرفض وحينها سيرى العالم جثّتي معلّقة على السلاسل الحديدة دون رأسي، وإما القبول والزواج من رجلٍ لا أعرفه، زوج واثقة أنه سيتعبني كثيراً ولا يريحني. قبلت العرض مرغمة وفي قلبي غصّة تكاد تكوي أضلعي، ليتني ما خطوت الخطوة الأولى وما فعلتها، ولأوّل مرّة أكره وطن وأكره قربها مني، لماذا اختارتني أنا بالذات لتجرّني وراءها وتدعني أسير مرغمة مغمضة العينين في دروب وعرة لا تجتازني بسهولة، نمت على حلمٍ واستيقظت على كابوس مفزع خائفة أن ينجلي آخذاً برأسي معه، أفقت من شرودي على صوت يسار يخبرني أن أترجّل من السيّارة فقد وصلنا البيت، نظرت من النافذة فوجدت البيت أمامي، وصلنا إلى البيت بسرعةٍ لم أصلها من قبل، ولكن راودني سؤال جعلني أنظر إلى يسار بحيرة كيف عرف طريق البيت ووصل بهذه السرعة، ارتجل

من السيّارة دون أن يبادلني نظرة واحدة يجيبني فيها عن سؤالي، تركني في ذهول المشهد لدقيقة حيّرتني فقطعها ثانية حين ناداني أن أرتجل، أغلقت باب السيّارة خلفي ومشيت معه أجرّ مخاوفي خلفي وارتباكي البادي على ملامحي.

صعدنا إلى البيت تاركاً لي حريّة المضي قبله كي أفتح الباب فيما هو واقف على الدرج متكئٌ على الجدار ينتظرُ الإذن بالدخول، فتحت الباب وناديته كي يدخل معي. هرعت والدتي إلينا وكأنني ناديتها، نظرت إليّ تستفهم الخبر، تقلب ناظريها بيني وبينه، قطبت حاجبيها وارتبط لسانها فما عادت تعرف شيئاً وكأنّها ما عادت تعرف ابنتها. أجلستها على كرسيّها الذي اعتادت الجلوس عليه لتتابع أخبار الساعة الثامنة مساء، في حين جلس يسار قبالتها ينظر بعينيه إلى أثاث بيتنا البسيط، جلست بجانبها أحاول الحديث لكن شيئاً ما علق في حلقي وربط لساني، لم أكن أعرف كيف أبدأ

القصّة وماذا أقول لها؟ استجمعت شجاعتي أخيراً ونظرت إلى يسار كان شارداً في الجدار خلف والدتي وكأنّه لا يهتم لوجوده معنا، نظرت إلى الأرض وبدأت حكاية انتهت ببكاء أمي وصياحها وصراخها، بدأت تلطم على وجهها خائفة على وحيدتها من يدِ غدر قد تطالها.

دمعت عيناي لمرآها هكذا، وضعت يدي على رأسها أحاول تهدئتها وطمأنتها ولكن الخوف كان يقتلني وكنت أتمنّى صدراً يطمئنني ويهدهد لي كي أنام قريرة العين. كذّب يسار توقّعاتي فقد كان رجلاً إذ اقترب منها وقبّل رأسها، هامساً لها بصوت دافئ:

- ابنتك في أمان.

جلس أمامها وأمسك يديها يقبلهما يحاول تهدئتها. لم أصدّقه فلن يكون أحنّ على والدتي مني، ولن يكون ابناً لها، فبالرغم من مشاجراتنا الدائمة بسبب خوفها الزائد عليّ إلا أنني اقتنعت أنّها كانت على حقّ في ذلك، فقد صدق ظنّها وخاب ظنّي.

وقف يسار بعد أن مسح عبرات والدتي وقال لي:

- ي الصباح سنذهب إلى القاضي لنتم مراسم الزواج، وبعدها نذهب إلى بيتي، البيت كبير وسيعجبكم.

- وهل ستذهب والدتي معنا.
- بالطبع، فأنا قد وجدتُ لحمايتكما معاً.
- شكرا على ذلك.
- لا تشكريني، فهذا قرار القيادة ولم يكن قراري أبداً.

ذهب بعد إهانته لي، قالها في صمته وأعلنها في كلامه أنه سيتزوّجني رغماً عنه ولم يكن صاحب القرار أبداً. سعدت بوجود والدتي معي، لن أُحرم من معاتباتها وصياحها الدائم عليّ، فقد اقتنعت بعتابها الآن وأدركت كم كانت على حقّ. نظرت إليها فكانت تطالعني بنظراتها والخوف يطلّ من عينيها في كلّ ثانية تتذكّر فيها ما أخبرتها عنه.

تركنا يسار ورحل وانقطعت الكهرباء عن المدينة، كانت دمشق غارقة في الظلام آنذاك وكنت أتخيّل نهاية الحكاية اليوم، آلام شديدة اجتاحت جسدي، وخيالات مرعبة قضّت مضجعي، أيعقل أن تكون نهايتي الليلة؟ والساعة تلك التي تدقّ في غير موعدها ستكون شاهدة على جريمة مخطط لها ومدبّر. شعور الخوف فظيع للغاية ولا يحتمل. الساعة بطيئة وكأنّها في اتفاق معهم. حاولت العودة إلى طبيعتي ورسم ابتسامة على وجهي، ليس لأجلي بل لأجل العجوز المسكينة

التي ما زالت تنتحب عمري وحياتي، قبّلتها وسحبتها من يدها إلى سريرها، تلك الليلة عدت طفلة صغيرة تحتضنها والدتها خائفة عليها من عالمٍ لا يرحمها، تمسح على شعري كي أنام وتستيقظ كلّ ساعة لتراني ما زلت في مكاني، تشبثت بها كطفلة صغيرة تخاف الجميع إلا أمّها، وأبكي في قلبي خشية أن تدمع عيناي أمامها، احتميت في أحضانها قائلة في قلبي لقلبها (لا أريد أن أموت يا أمّي... كنت أسمع عن الموت الكثير وخاصة حين تناديني لأشاهد الأخبار معك، لم أهتم لأعدادهم ولم أشعر بعائلات لهم خلّفوها خلفهم، كانوا مجرّد أعدادٍ تنطق على التلفاز من شخص يخطئ حين يلفظ الرقم، من لسان دون قلب ولا شعور، لا أريد أن أكون خبراً يا أمي، لا أريد أن أكون رقماً، لا أريد أن يقال عني الجثّة) لم تسمع أمي صيحات قلبي الصارخة بخوفٍ لا يحتمل ولكنّها شعرت بغصّة فؤادي وآلامي. (ضعيفة أنا يا أمّي، هشّة من الداخل،

فقد ولدت في رخاء وعشت في أمان، لم يطالني الخوف إلا في تلك اللحظات، ليت لي قلباً كوطن لا يبالي ولا يخاف، ولكن وطن تعوّدت على الآلام، هل سأصير إلى ما كانت عليه حتّى أتعوّد على آلام لا أطيقها) نظرت إلى والدتي وهي نائمة فهي أفضل نعمة قد حصلت عليها، أتمنى أن نبقى معاً إلى الأبد، أمي نعمة كبرى لي وكلّ النعم بعدها صغار.

جاءني يسار صباح اليوم التالي، واصطحبنا إلى القاضي لإكمال ما اتفقنا عليه، كنّا ثلاثتنا في صمت مطبق، وكأن على رؤوسنا الطير، أمّي تنتحب بصمت زفاف ابنتها لرجلٍ غريب عنها لا تعرفه، لا تعرف إن كان سيسعدها أم سيتعسها، كانت تحلم بحفلة زفاف كبيرة تليق بمحبوبتها ولكنها الآن ستزوّجني مرغمة لرجلٍ لا يكترث بي، من دون حفلة وكأنّ بي عاهة ما، وأنا كنت أتأمّل زفافي الصامت إلى رجلٍ أمقته قبل أن أعرفه، كرهت وجوده معي لأنني مجبرة

على البقاء معه في بيت واحد، سيكون فيه الآمر الناهي، في منزله. وهو صامتٌ كتوم لا أدري ما في قلبه، وكأنّه في مهمّة سريّة عليه إتمامها كما أمرت قيادته.

أتممنا الإجراءات بسرعة وفي قلبي جرحٌ قد حُفر، حيرة مربكة رمتني في أحضان رجلٍ لا أعرفه ولا تهمّني معرفته، وددت لو أستطيع محادثة مالك ذاك الغريب الذي أشعل في مهجتي النيران ولم يطفئها بسبب عدم ردّه على مكالمتي الطارئة، ذاك العابر الذي لم ألتقيه على أرض الواقع يوماً، ولكنني على يقين تام بأنّه خلاصي من هذا الجحيم، مالك يا بطل روايتي أين أنت في كلّ ما يحدث لي؟ هل تراك تعرف ما يحدث لي؟ ومع ذلك صممت على البقاء في الظلّ كي لا تراك العيون.

جلست في السيّارة خلف يسار وأميّ جلست بجواره، كنت بائسة وكأنّ هموماً من الجبال ماكثة على صدري،

نظرات أمّي تخترق كالسهم شرودي فتعاتبني بنظراتها الحانية، أتأمّل تجاعيد الزمان حول عينيها وكيف تضاعفت في الآونة الأخيرة، أمقت ذاتي ووطن والشهرة وأحلامي والحرب برمّتها، أهرب من نظراتها إلى يسار لعلّي أجد فيه أمان نمر لكنّ في عينيه قسوة السنين وخشونة الأيّام، أهرب منهما ومن نظراتهما إلى النافذة أحاول الاحتفاظ بما تبقّى من دمشق لعلّها تحيا في ذاكرتي، خالدة لا تفنى ولا تزول، دمشق لم تعاتبني كأمّي ولم تقسُ عليّ كيسار بل وجدتها فاتحة ذراعيها لي تعانقني فأتمنى لو أنزل من السيّارة الآن وأهيم في شوارعها عشقاً أبكيها حبّاً فتزيد عناقي، كم أنا مولّهة فيك أيّتها المدينة الخالدة، فبالله عليك كوني سنداً لنكون لك أبناء بررة.

وصلنا إلى بيته ودخلناه معاً، كان كبيراً للغاية، مصممٌ على الطراز التقليدي، مظلمٌ وكئيب، باردٌ جدّاً مع أننا في منتصف الصيف، أشعل الأنوار جميعها ومع ذلك لم يصل

النور إلى قلبي أبداً، الظلام قابع في قلبي فلم يرَ نور البيت وشعاعه الذي غمر أرجاء البيت بأكمله.

جلس على الأريكة التي تتوسّط الصالة طالباً منا الجلوس بابتسامة لطيفة رسمها على محياه ثمّ سرعان ما ندم عليها فقتلها. كلّ منّا قد أخذ مكانه في الجلوس، ننظر إلى الأرض تارة وتارة أخرى نطالع بعضنا بنظراتٍ خجولة حتى كسر حاجز الخجل بيننا وبدأ يتحدّث عن أمور المنزل وهو يقلبّ ناظريه بيني وبين والدتي:

- أهلاً وسهلاً بكم في بيتي المتواضع.

ردّت والدتي بأدب:

- أهلاً بك يا بني.

ابتسم ابتسامة صفراء وأكمل:

- لنتعامل هنا كعائلة واحدة لأننا سنعيش هنا زمناً لا نعرف متى سينقضي.

طأطأنا أنا ووالدتي رأسنا علامة منا على الموافقة ثمّ أردف:

- سأدلّكما على غرفتيكما.. تعالا معي.

مشى دون أن ينظر وراءه فيما مشينا خلفه والخوف يحتلّ جزءاً كبيراً بداخلي، لا أعرف لماذا لا أطمئنّ لوجودي معه، لا أعرف لماذا هاجس القلق يسيّطر عليّ ويمنعه من دخول قلبي. كانت غرفته كبيرة جدّاً بمقدار بيتنا تقريباً، قد

صممت على الطراز الرومانسي مع أنها تخفي بداخلها خوفاً لا أراه وإنّما شعرت به حال دخولها، خوف تملّكني وطردني خارجها بسرعة لأدخل بعدها غرفة والدتي التي كانت هادئة وأنيقة.

عدنا إلى الصالة نشاهد أخبار الساعة الثالثة عصراً، استأذنت أمي منّا لتستريح في غرفتها حينما بدأت الأخبار وهي التي كانت تدمن الاستماع إليها صارت تخافها وتكرهها. بعد عدّة دقائق أردت اللحاق بها والهروب من نظراته الغريبة، لكنّه أمسك يدي ومنعني من الوصول إلى برّ الأمان، قال بصوتٍ أجشّ:

- تعالي ندخل حجرتنا، أودّ محادثتك في أمورٍ هامة.

وافقت على مضض ورجائي أن يرسل الرب ملائكته من السماء كي يحملوني من هنا، ويذهبوا بي إلى مكان أكثر أمناً، دخلت وإيّاه الغرفة، جلست على حافة السرير أشبك أصابعي ببعضهما البعض، أتأمّل خطوطهما المرسومة بعناية، في حينٍ جلس هو بجانبي ينظر إلى أصابعي وكأنه يساعد في ارتباكي ثم حطّم حاجز الصمت الجليدي حين قال:

- بيتي هذا هو أمانك... (أشار إلى صدره) صدري هذا هو ملجَؤكِ، حضني هو وحدتك، وأنا كلّي لكِ، لن أقترب منك يا طفلتي حتى تطلبي أنت ذلك، فأنا أكره السلب والسطو، أكره انتهاك جسدٍ لا يريدني، لأنني أخشى الثورات بعدها.

نظرت إليه أخفي ارتباكي، أصغي إلى كلّ حرفٍ ينطقه وكلّ تحذير يصدره ثم أردف:

- كلّ ما تطلبينه منّي سيكون لك، لكن حذار أن تقتربي من النوافذ والشرفات ولا تفتحي الباب لأيّ طارقٍ يطرقه حتّى لو كنت أنا.

أنهى خطابه التحذيري، تركني في وجلٍ وذهب دون أن يكمل ما بدأ، كأنّه على موعدٍ ما، وصفق الباب خلفه فسقط قلبي من الخوف من مكمنه، وكأنه صفق قلبي. كلامه فيه اللطف واللباقة، أعتقد بأنني سأسعد معه لا محالة، لم يكن قاسياً في كلامه بل كان شخصاً حنوناً وبدا عليه الحبّ والاهتمام، أتمنّى أن يكون كذلك ولا تكون هذه بداية من

البدايات المغرية لتلحقها نهايات أليمة لا يمكن تخطّيها بسهولة ويسر.

ذهبت إلى والدتي وجدّتها مستلقية على ظهرها تفكّر في كلّ شيء، الماضي والحاضر والمستقبل، لا تريد أن تنسى ذكرى أو تتجاهل أمراً أو تتناسى خبراً، عيناها شاردة في الفراغ كعيني وطن حين أنهت روايتها، عيناها تحوم في اللاشيء، تبحث عن أمرٍ ما ولا تدركه، تركض وراء الأوهام ولا تلتقطها، جلست بجانبها صامتة أتأمّل هشاشة قلبها ووهن جسدها، وددت لو أرتمي في أحضانها وأبكي عمري القادم ومستقبلي الغامض، لكنها كانت في عالمٍ آخر لا يسعني، ربّما في هذه اللحظة لن تستوعب مشاعري.

* * * * * *

بدأت حياتنا هنا عاديّة، فيسار

كان لطيفاً ودوداً حسن المعشر، فنّد كلّ توقّعاتي فلم يكن صلباً وقاسياً، زال الخوف منّي حين لمحت طيبة قلبه، لم يجبرني على شيء أبداً، لكنني كنت أشعر أنه يسجنني ويكبّلني بأصفادٍ لا أراها، منعني منعاً باتاً من الاقتراب من الشرفات والنوافذ كما أمر، أوامره ممنوع على أحدٍ منّا تخطّيها أو تجاوزها، كان يريد حمايتنا بشتّى الوسائل التي يراها مناسبة، وكان إلحاحه الشديد بسحب روايتي من الأسواق يتزايد يوماً بعد يوم بسبب خوفه الدائم عليّ من داعش وعصابتها. أقف مكتوفة الأيدي أستمع إلى تحذيراته ثم أرفض ذلك، لن أفعل أمراً لا يرضيني، ولن أفعل شيئاً بدون إرادة منّي.

نظراته تجتاحني بين الفينة والأخرى، أشعر بها تلاحقني في كلّ الاتجاهات، ومع أنه دائم الهدوء ولم يصدر

عنه أيّ فعل مشين، إلا أنني أشعر بمراقبته لي على الدوام. أهرب من عينيه إلى غرفتنا كي أنام وأستريح فأجده بجانبي ينظر إليّ نظرة لا مبالاة وينام على السرير تاركاً فراغاً كبيراً بيننا وبين قلبينا مساحات شاهقة. أحتفظ بكبريائي فأنام بعيدة عنه، على حافة السرير يتكوّر جسدي الصغير في محاولة عدم لمس جسده وعدم الاقتراب منه، أما هو فيدير ظهره لي وينام على الفور دون التفوّه بحرفٍ واحد، لم أفهمه ولم أفهم ماهيّة تفكيره، كلّ ما فيه عبارة عن أحاجٍ عميقة وعصيّة على الفهم. طلاسمٌ وألغازٌ لا يفهمها سوى عالمٌ بها، وأنا لا حول لي ولا قوّة أنّى لي بفهمه؟ أنتظره ليستغرق في نومه، أهرع إلى الطاولة الخشبية أفتح دفتري وأبدأ بكتابة رواية جديدة، على ضوء المصباح الصغير تنساب أفكاري لتخلّد في هذا الدفتر الورقي، كتبت بأعلى الصفحة عنوان روايتي قيد الإنجاز (الحسناء والرجل ذو القلب الجليدي) أبدع بها سرد

ما يحدث لي هنا في السجن الكبير، وما إن أنتهي وأغلق الدفتر حتّى يتراءى لي شبحه في ظلمة الليل واقفاً كالنسر منتظرا فريسته، أقف فأراه ما زال واقفاً خلفي ينظر إليّ ببرود شديد، تخيفني تلك العينان في الليالي المظلمة، يفزعني نور عينيه المتوهّجة بنارٍ لا ترحم، أخاف على ذاتي منه فأحاول إقناع نفسي بأنّه ليس بصيّاد ولست فريسة له، يبدأ تحقيقه معي عن الرواية الجديدة وبعد أن يصل إلى سمعه الجواب الذي يريده يخطف من يدي الدفتر ليتفحصه، وحين يقرأ العنوان يرميه على الطاولة ويأمرني بإطفاء المصباح والخلود إلى النوم. ينام هو حين أبقى أنا أتأمّل خوفي منه ومن حياتي معه.

كلّ ليلة نعيش الحالة ذاتها ، أنا وهو في صراعٍ دائم، هو يظنّ نفسه الملاك الحارس الذي هبط من السماء ليحميني، وأنا أظنّ نفسي سجينة في قصرٍ من جليد. ربّما

الجليد أكثر دفئاً من برودة بيته. يهرب النوم من أجفاني فأودّ لو يضمّني قليلاً كي ترتاح النفس في أحضانه، أتمنّى لو يشعرني بحبّه وحنانه ولكن أنّى لقلب لا يعرف إلّا القسوة أن يحب. أيعقل أن تكون هناك أخرى تشغل قلبه؟ أتراني بدأت أغار عليه لكوني زوجته فقط، زوجة شرعيّة بقلم من القاضي وورقة لا يكترث لها. أحاول التجاهل والتفكير في كلّ شيء ما عداه وما عدا بروده القاتل، ليتني كنت كهاتفه الذي لا يفارقه، دائم التواجد في يده، يكتب بسرعة جنونية على لوحة مفاتيحه فتكاد تستنجد وتصرخ من كثرة ما يطرق أصابعه عليها. وكأنّ جليد قلبه صورة خارجية وفي داخله بركان عاصف، من الخارج برودة صاخبة ومن الداخل يضجّ بنارٍ تكاد تحرقه.

أرهق نفسي كل ساعة من كثرة التفكير وتحليل شخصيّته وتصرّفاته وربّما هو لا يكترث بي، عليه مهمّة صعبة وربّما سهلة عليه إنجازها بأكمل وجه، فالخطأ قاتلٌ

فيها وليس رحيماً، لا يهمّه سنا، ما يهمّه أوامر قيادته فقط، أنظر إليه فيتجاهلني، ينظر إليّ فأتجاهله، هل سنبقى هكذا؟ متى تنتهي الحكاية وأرتاح من رواية لم تنته فصولها بعد؟

أتركه وأذهب إلى والدتي أحاول تخفيف ضجيج أفكارها فأربت على كتفها وأحسدها على ابتسامتها الهادئة حين تراني وكأنّها امتلكت الكون بأكمله، أجلس بجانبها وأبادلها ذات الابتسامة فتتلمس جسدي وتمسح على شعري وكأنّها تطمئن بأنّ كل أعضاء جسدي ما زالت في مكانها ولم تصب بأيّ خدش، وبعدها تبدأ حديثاً لا ينته بساعة واحدة. تقول أمّي:

- هل أدركت أخيراً الخوف الذي ينتابني كل يوم عليك؟

- أدركت ذلك بعد ما حدث لي.

- ماذا سيحدث في المستقبل؟

– لا أدري وأخشى التفكير فيما سيحدث.

– وماذا عنك وعن يسار؟

– لا شيء البتّة... هو رجلٌ غير عادي، أحياناً أرى لمعة الحنان في عينيه وأحياناً أخرى ألمح قسوة لا تلين.

نمت في حجرها وأغمضت عيناي، انهالت دمعة يتيمة فمسحتها قبل أن تراها فتدمع لمرآها. أمّي قوّتي ولا أحبّ أن أراها ضعيفة، أستمع إلى حكاياتها المغلّفة بدفء همساتها وحنان يديها، وعقلي يفكر بمالك الأسطورة الخالدة في قلبي متى سيشعّ نوره ويخرج إلى حاضري؟ متى سيخرج من رواية وطن ليخلّد بطلاً في روايتي؟

أتمنّى الاستيقاظ على انتهاء الرواية وانتهاء الآلام والخوف فيها، أتمنّى أن تكون النهاية لصالحي، لا أريد أن أكون بطلة في رواية أحدهم، أخاف أن يفعل بي ما فعلته في

وطن، لا أريد أن يكتبني بقلم لا مشاعر فيه، لا أريد أن يبتكرني كما يريد هو وقلمه، لا أريده أن يتفنن في إيذاء جسدي وجرح مشاعري، سيسطّر صفحات عن مشاعر الخوف التي اجتاحتني وتجتاحني كلّ حين، الآن شعرت بآلام أبطالي وأنا أرسمها، كنت أسطّر آلامهم فأفرغ ما في جعبتي من جراحات وأهبها لهم، أعطيهم ما لا يستطيعون تحمّله من عذابات دون أن يرفضوا هديتي ولا يشعلون الحروب ضدّي.

أنا الآن تائهة في الوسط المميت، الرجوع إلى الخلف مستحيل والتقدّم إلى الأمام مرهق ومخيف والبقاء هنا لا نهاية له، فقدت أملي في مالك وخاصة بعد أن بدأ يسار بمراقبة خطوط هاتفي، خفت عليه من يسار ومع أنه ظلّ في رواية لا أعرفه إلّا أنني شعرت بقربه منّي في كلّ لحظة أحاول الهروب فيها من نظرات يسار. أيعقل أن يكون يسار هو مالك؟ شخصيتان في روايتين، كلتاهما معقدتان وكلتاهما

يكتنفهما الغموض، أشعلا في قلبي الحيرة والارتباك، فمتى سترحل يا يسار؟ ومتى ستأتي يا مالك الروح والخيال؟

تركت أمّي بعد أن نامت وقبّلت يديها، ذهبت إلى الصالة وجلست أشاهد التلفاز لعلّي أقتل الملل الذي هاجمني وبدأ ينهش قلبي وعقلي ويحاول تسميم أفكاري، أدرت التلفاز وجلست واضعةً ساقاً على أخرى، وفكري شاردٌ في كلّ شيء دفعة واحدة، أيقظني من شرودي ذكر اسمي على لسان المذيع البليد فاقد المشاعر، نظرت إلى التلفاز بسرعة فوجدت الخبر مفاده (داعش ما زالت تهدد الكاتبة السورية سنا بالقتل إن لم تستجب لمطالبها بسحب الرواية من الأسواق) سرحت في الماضي، هناك حين بدأت الكتابة وأمنياتي أن أصبح كاتبة عالمية لم تغب عن ساحتي، كنت دائمة التمنّي في أن أكون كاتبة لها سمعتها تطاردها وسائل الإعلام كافة في كلّ مكان تطلب منها سبقاً صحفياً أو مقابلة تلفزيونيّة. لم أكن

أتوقّع أن أصبح مشهورة بهذه الطريقة المخيفة، على أشلاء أنثى عرفتها لدقائق، مشهورة على حساب راحتي وأماني، شهرة مغلّفة بطعم الخوف والعذاب والأحزان.

ليتني لم أحلم بذلك، ليت الزمان يعود بي حينما كنت كاتبة لا يعرفها أحد، تكتب لذاتها وعن ذاتها فقط ، تشارك قرّاءها خواطر من كتاباتها على برنامج الفيس بوك.

عشرات الرسائل ترد إلى هاتفي من قنوات أعرفها ولا أعرفها، إذاعات غريبة وصحف ومجلّات تطلب مني قبول طلبها بمقابلة أو سبقٍ صحفي.

وكعادة يسار كل يوم حين أخبره برسالة لقناة أو إذاعة أو صحيفة يرفض ذلك، يريدني أن أختبئ فلا يراني أحد، كنت بحاجة إلى هذه المقابلات كي أنفس عن ذاتي وأهرب من قيده القاسي، كي أهرب من بيته الجليدي، كنت أريد متنفّساً لذاتي يشاركني شعور الخوف يمنحني أماناً وراحة

افتقدتها منذ زمن، كان رفضه أمراً حاسماً ولا مجال للنقاش فيه، حتّى الصحفيين الذين أتوا إلى المنزل ذاك اليوم طردهم جميعاً وهدد بأخذ هاتفي منّي في حال أصغيت إلى أحدهم، وتبقى رسائل التهديد فقط هي من تصلني وهو على علمٍ بها جميعاً فلا يحرّك ساكناً بل يأخذه الشرود إلى مكانٍ ليتني أعلمه وليتني أعرف خبايا نفسه.

بدأتُ أكره قيوده، ذاك النير الذي وشمني به من دون إرادة منّي صرت أحتقره، من هو ليعتقل شخصيّتي إلى هذه الدرجة ويسلب منّي حريّتي وتفكيري، حتى رواياتي الجديدة بدأت أكتبها كما يريد هو، لا كما أرغب أنا، صار يغيّر الحقائق والتاريخ كما يهوى ويشاء فيما أنا واقفة كالصنم أحاول الاعتراض والدفاع عما تبقّى من سنا فيقطب حاجبيه بقسوة يخيفني ويرعبني فأصمت ثمّ أصمت ثمّ يبتلع الصمت

ما تبقّى منّي، يتركني مطأطأة الرأس أبحث عن مكان أحتمي فيه من سلطان غضبه.

*   *   *   *   *   *

استسلمتُ أخيراً ليسار

على عكس وطن وصمودها، كنت خانعة لا أرفض له طلباً ولا أعصي له أمراً، خائفة أن أموت هنا ولا يدري أحدٌ بموتي، فموتي سيكون عارٌ عليّ وعلى وطني، ليتني أستطيع مقاومته كما فعلت وطن، ليتني أستطيع قتله كي أحيا أنا، ولكنه كان كالسمّ يسري في الجسد مسرى الدم.

جلستُ أحتسي قهوتي الصباحية أمام التلفاز أستمع إلى فيروز وأغنيتها (قرأتُ مجدك في قلبي وفي الكتب... شآم ما المجد؟ أنت المجد لم يغب) وتظهر مشاهد تاريخية لدمشق القديمة لزمن كنا ننعم فيها بالرخاء والهناء. سافر خيالي إلى تلك الأماكن التي اشتاقها قلبي كثيراً، أبكي لمرآها على الشاشة، وهي في قلبي تعيش. لم أنتبه إليه حين جلس بجانبي، لشدّة اقترابه منّي كاد أن يجلس فوقي على غير عادته. اهتزّ بيدي فنجان القهوة فسقطت بضع قطرات منه

على ثوبي، وضعت الفنجان على الطاولة وامتلأت يدي بقطرات من القهوة كانت تسيل عليها وتنسكب على الأرض. وقفت لأذهب وأغسل يدي وثوبي، لكنّه منعني من الذهاب، إذ أمسك معصمي، لم أنظر إلى وجهه بل إلى يده وهي تحاصر معصمي وتطوّقه، تأمّلت أصابعه وهي تلتفّ حول معصمي تكاد تخنقه، ظننتُ يده كالقيد، شعرتُ بالاختناق، حاولتُ سحب، يدي لكنني لم استطع، قال بصوتٍ هادئ لم أسمعه منذ زمن:

- ستذهبين اليوم معي.

ما زلت أنظر إلى يده وسألته بشرود طال كثيراً:

- إلى أين؟

- إلى دمشق وأحيائها ، شوارعها وأزقّتها، ياسمينها وورودها، بردى وقاسيون.

نظرت إليه وسألته باستهجان:

- كيف حدث ذلك؟ ولماذا بعد كل هذه الأيّام وأنت تحبسني هنا؟

- معك حق... سنسير فيها ونحن في السيّارة، لن نترجّل منها، سنبقى نمشي في شوارعها لعلّها تشهد يوماً حبّنا لها.

- وهل تحبّها؟

- وهل هناك من لا يحبّ الشام وهو الغريب عنها، فكيف وأنا ابن لها. دمشق عشقي والعشق هو دمشق.

نظرت إليه بعيون تلمع فرحاً وتتألّق حبّاً لمدينتها وقلت:

- ومتى سيكون المسير؟
- الآن.
- هل نأخذ والدتي معنا؟

صاح فجأة:

- لا... سنكون لوحدنا، هناك كثيرٌ من الكلام عالق في صدري أودّ الإفراج عنه لك فقط.

ابتسمت ابتسامة خجلة وأنا أراه يبتسم لي، سيعلن لي حبّاً كبيراً تشهده شوارع دمشق وأزقّتها القديمة.

أطلق سراح يدي، ذهبتُ لأغسل القهوة التي كانت قد علقت جيّداً على يدي، ولبست ثوباً آخر، كان ينتظرني قرب الباب، لم يترك لي أيّ فرصة لأخبر والدتي أني راحلة إلى الشام فلتحتوي آلامي وتضمّني كنجمة خالدة في سمائها. لكم اشتقت إليها وإلى ياسمينها البلدي، سأزورها اليوم وكلّ يومٍ لطالما سمح لي أخيراً بمغادرة برجه العاجي سيقبل أن أخرج كلّ يومٍ، ففي قلبه حبّ لم أره بعد ولكنني على يقين بأنني سأشعر به اليوم، أدرك تماماً أنّه سيفاجئني مفاجئة كبيرة لا تخطر على قلب بشر.

كان متسرّعاً في قراره وكأنّه على موعدٍ مع أحدٍ غيري في هذا الصباح، أمسك يدي ونزلنا الأدراج بسرعة البرق وقلبي عند والدتي كيف أخرج هكذا من دون إخبارها؟ سينفطر قلبها وتخاف كثيراً، ليتني أخبرتها فأخشى أن تقلق كثيراً فتبكي غيابي بينما أنا أضجّ سعادة بين أحضان دمشق

وضواحيها. فتح لي باب السيّارة على غير عادته في الكرم الرجولي وجلست مكاني فأغلقه بهدوء وجلس مكانه.

انطلقت بنا السيّارة تشق شوارع دمشق وأحيائها، يلفحني نسيمها البارد وعطر ياسمينها، لكم اشتقت إليها وأنا أعيش فيها فكيف حال المغترب عنها. تشبّثت بالنافذة كطفل رضيع يتشبّث بصدر والدته. أنظر إلى مياه بردى وهي تتألق وهجاً منيراً يعكس نور الشمس. نظرت إليه وهو صامتٌ كصخرٍ لا يلين وددت أن أشكره وقلبي يشكره كلّ ثانية، وددت لو أقبّله وأضمّه على هكذا معروفٍ صنعه لي، لن أخجل من عناقه هنا. فلتشهدي يا شام حبّنا لك وحبي له. أعتقد أنّه بدأ يهواني فأرادني سعيدة، أراد رسم الضحكات على شفتي، عدت أنظر إليه كان صامتاً كعادته، لم يبادلني نظرة واحدة. همّه الوحيد القيادة والتفكير بأمورٍ لا أعرفها، ليتني أستطيع دخول قلبه لأعرف إن كانت هناك أخرى سكنت قلبه قبلي أم بعدي،

ليتني أستطيع دخول عقله لأعرف تفكيره وبما يشغله على الدوام. إن قرر أن يهيم بي حقّاً سأعشقه وسأهيم به عمراً. سنمشي يوميّاً تحت مطر دمشق دون سيّارته. سنركض هنا وسيحملني أمام الجميع يقبّلني ويراقصني ويقطف لي من الياسمين عقداً أزيّن به رقبتي.

وصلنا إلى أطراف دمشق أمرني بالارتجال من السيّارة. سعدت بذلك وامتثلت لأوامره، لم يكن سوانا في البراري، إذاً له طقوسه في الحب، سيعشقني على طريقته الغريبة. هنا الورود خلقها الله في شتّى الألوان تزيّن الطبيعة هنا أمام الجبال الشاهقة، سيقطف لي أجملها وأبهاها. يا لهُ من إنسانٍ مرهف الإحساس والمشاعر، سيغنّي لي بصوته الدافئ بعد أن يشبعني قبلاتٍ لا تنته إلّا بأحضانه. أحببت طريقته اللطيفة في التعبير عن حبّه.

نزلتُ خجلة من السيّارة وفي قلبي سعادة الكون تكاد الورود تعبر عنها بجميع ألوانها، أخشى أن تكون الحلقة الأخيرة هنا لشدّة السعادة التي زارتني. طردت الأفكار السلبيّة من رأسي وفندّتها حين تقدمت إلى الأمام أمتّع ناظري بجمال وطني، ما زال واقفاً أمام السيارة مقطب الجبين لا أدري لماذا؟ بينما أسير أمامه ببطء أتوسّط المروجِ منتظرة منه اللحاق بي وضمّي من الخلف كالأفلام الرومانسيّة يشبعني قبلات خارجة من قلبه قبل فمه فيشعل في فؤادي لهيب الحب ولا يطفئِه. قبلات تكتب حبّاً جديداً تضيفه إلى سلسلة حكايات الحبّ والغرام.

لكن ما حدث لم يكن متوقّعاً بالنسبة لي... تكبّلت يداي على الفور فصرخت بأعلى صوتي كمّوا فمي كي لا تعاد الصرخة مرّة أخرى، أوثقوا يدي بإحكام وأداروا وجهي إليه. أنظر إليه بصدمة الحبّ الذي رسمته في قلبي قبل ثوانٍ، هو

ما زال واقفاً أمام سيّارته وسمعت همسه (سامحيني) ركب السيّارة وانطلق بعيداً، لا كما جاء بل بسرعة جنونيّة تفوق وصف الخيال. أتراه هرب قبل أن تعاتبه نظراتي؟ أم ماذا؟ أغمضوا عيني وحشروني بسيارة صغيرة بعد أن حقنوني بإبرة مخدّر.

* * * * *

كانت مفاجئة ضخمة لم أتوقّعها

من يسار، بالفعل فاجئني وأرهق تفكيري بوالدتي ماذا سيفعل بها من بعدي؟ لم يكن يسار واحداً منّا بل كان قائداً منهم وجاسوساً علينا. لم يعرف أحد بذلك ولم أشعر به ورغم أنني أعيش ببيته وأنام بجانبه كلّ ليلة، لما لم يقتلني وفضّل الصبر كلّ هذه المدة وتسليمي لهم على طبق من ذهب؟

استيقظت ويداي ما زالتا مكبلتين بقيد حديدي وقدمي كذلك، مسجونة في غرفة صغيرة بالكاد تتسع لشخصين لا ثالث فيها. فتشت حولي فلم أجد مكاناً للحب الذي كان، لم أجد متسعا للحب هنا في السجن الصغير، أكان حلماً؟ دمشق وريفها وطبيعته بورودها ومروجها، لا ... لم يكن حلماً فقد قال "سامحيني" كيف سأسامحه وأنا مقيّدة بقيود حديدية؟ لا أعلم شيئاً، رأسي يكاد ينفجر من شدّة التفكير ومعدتي تؤلمني من تأثير المخدّر.

داعش لم تصل إلينا إلا بوجود هؤلاء بيننا _ يسار وعزيز _ وجهان لعملة واحدة، كيف استطاعا الخيانة وبيع الوطن بمبالغ زهيدة، اللعنة عليك يا يسار كيف وثقت بك وجعلتك أماني كنمر؟ لهذا السبب يا وطن لم نسترجع المدينة منهم، أمثال يسار كثر في الداخل والخارج، ألم يشعر بشعور الانتماء للوطن حين كنّا معاً، كنت سعيدة بأنّ دمشق ستشهد حبّنا، لم يكن هناك حباً يا شام، كانت هناك خطط تقام للإيقاع بكلينا، مفاجئة كبيرةِ لم أحسب لها حساب... آه يا شام لو كانت لك يدين لكنت قتلته ودفنته تحت أرضك، كيف استطاع التآمر عليك وهو يعيش على أرضك؟ ألم يشعر بتأنيب الضمير حين يشمّ ياسمينك؟ في هذه اللحظة بالذات أشعر باختناق فظيع حين أفكر أننا لن نستعيد باقي المدن من المرتزقة بسبب وجود يسار وأشباهه على أرضنا.

فتح باب زنزانتي أخيراً، أليس من الغريب أن أضيف ياء الملكيّة عليها وأنا بها منذ ساعات فقط؟ هل أنا واثقة أنني سأبقى بها سنيناً لا تعد؟ دخل رجلٌ ذو لباس أسود، كان ضخم الجثّة، وكأنني لمحت مارد المصباح بسبب طوله الضخم، رمى لي القليل من الطعام وكأنني كلبته الودودة وجلس القرفصاء مقابلتي وقال لي بصوتٍ أجشّ:

- أهلاً بكاتبتنا الصغيرة.
- أين أنا؟
- أنت في الدولة الإسلامية في العراق والشام.

سقط قلبي لسماعها ودوت أصوات انفجارات في عقلي، حاولت تحسس رقبتي ولكنّ القيد أحكم على يدي وشلّ حركتي. أردف هو:

- هذا مصير من يتحدّانا... ويكتب فينا ما لا يمكن كتابته. ممنوع على الجميع قراءته. أقمنا الحدّ على كلّ من يقرأ تلك الرواية.

أصابني كلامه بوعكة صحيّة وودت لو أتقيّأ فمعدتي تصرخ من الآلام. هذه ليست مدينة وطن. فمدينتها قد تحررت منذ فترة، إذا أين أنا الآن؟ حاولت رفع يداي وتحسس رأسي إن كان في مكانه أو لا. أريد الاطمئنان على أنه لم يصب بخدش واحد فأنا ما عدت أشعر بوجوده فوق رقبتي. ضحك بملء فيه وقال:

- تحسسيها الآن قبل غدٍ فربّما لن تجديها.

وقهقه عالياً فارتجت الأرض لقهقهته، غادر كما جاء برعبٍ أطبق شفتاي فزعاً، أغلق الباب خلفه وتركني أبكي عمري المهدور والمسلوب مني، أبكي والدتي التي تركتها في المنزل الجليدي وحيدة تنتظر عودتي، إلى متى ستبقى والدتي تنتظر والدي وتنتظرني أنا؟ قالتها لي مرّات عدة (من يرحل لا يعود يا سنا) لن أعود ولن تنساني أمي، ستبكي قهراً كل ليلة وهي واقفة أمام النافذة تنتظرني. ستنتهي الحرب ووالدتي تنتظر طفلتها أن تعود لها يوماً. ما عساه يفعل بها يسار؟ أخاف عليها كثيراً من وعكة صحيّة بسببي تقتلها فخوفها عليّ يزداد كثيراً كل ليلةٍ.

بدأ عقلي يعيد لي اسم مالك بالدقيقة سبعين مرّة، في أوقات الحاجة أتمناه صديقاً لي، تبّاً لك يا صاحِ ففي أوقات خوفي تهرب وتغيب فلا أجدك. أين أنت الآن؟

شعرت بشعور أمي لأوّل مرّة وبخوفها الدائم علي، قلب الأم يشعر بحدوث مكروه لابنتها قبل أن يصيبها. ليتني استمعت إلى نصائحها لكنت الآن في خلدها سعيدة. شعرت بخوف وطن حين كانت عندهم، شعرت بجميع مشاعر الخوف حتى سرى الألم في جسدي يناشدني أن أكفّ عن التفكير فلا طاقة له بحمل المزيد من العذاب.

لا أريد أن يكون مصيري كما كتبت أنا وأبدعت، لا أريد أن ألقى مصير قمر أو نمر، سأموت هنا وأقتل ولا أحد يعلم بموتي سواهم، سيعلنونه أمراً بطولياً وستعرض القنوات جميعها خبري، سيحزن البعض وسأصبح حديثاً دسماً في مجالس البعض. سيأتي أحدهم ويمسك قلمه ليخط حكايتي رواية له، يصعد على درج الشهرة على جثّة آلامي وطموحاتي، لكم ندمت يا وطن على ما فعلته بك، حين كنت تقصّين روايتك كنت أحلم بشهرة توصلني إلى القمة ، ليتني

حينها ما طلبتها يا صديقتي، صعدت ذاك الدرج على أشلائك وعلى حطام أيّامك، على عبرات والدتي وخوفها الدائم، وهناك من سيصعد منبر الأدب على حساب جراحي وعذابي. لن أستطيع إخباره بأن حكاية كهذه كتبتْ بمداد من دم. لا بمداد من حبرٍ لا يشعر ببطلته.

* * * * *

نسي القمر أن يظهر

ذاك المساء في السماء، كما نسيت نجومه أن تشعّ نوراً في صفحة السماء السوداء. الليل حالك فالقمر لم ينر دروب الناس المظلمة، فقد تعب من ظلمهم وغيهم في الأرض، ولكن ما ذنبي أنا في عدم إرسال شعاعه إلى زنزانتي المظلمة التي كانت تفوح منها رائحة القهر؟ مقيّدة بالأغلال أستغيث بصمت.

بكيتُ كثيراً ولم أجد يداً حانية تمسح عبراتي، ذلك النير يضيّق على أحلامي وآمالي، وتلك الأغلال التي في قدمي كانت تضغط على أمانيّ العذبة، القيود الموضوعة في يديّ كانت تنادي للأمان وللحريّة. كنت في زنزانتي عصفورة مكبّلة بالأغلال، فراشة كسرت السلاسل جناحيها. حاولت النهوض مرّات عديدة فلم أستطع من كثرة ما تمّ تكبيلي من قيود حديديّة.

تسمّرت في مكاني أنظر إلى النافذة الصغيرة المرتفعة أرى الليل الحالك وظلامه الذي بدوره ينساب إلى سجني فيغرقه ظلاماً ومن ثم يصل إلى أعماقي فيحيلها سواداً في سواد، أعتقد أن هذه النافذة هي بارقة أمل لديّ، ففيها شعرت بالأمل وهو مرشدي إلى الحريّة التي أبتغيها. انتظرت القمر لعلّه يأتيني زائراً يرسل أشعته الفضيّة فيواسيني على قيود أمتلكها. لكن تلك الليلة غاب القمر عن صفحة السماء ولم يزرني إطلاقاً.

الزنزانة باردة لا دفء فيها ولا حرارة حتّى أشعة الشمس بالكاد تصلها، خشيت أن تبدأ قصّة عذابي ولا تنته ، أن تمرّ الأيّام فتكثر الآلام والأحزان، هناك في الخارج من ينتظر خروجي ليكتب قصّتي بدموعي ويخطّ عنوانها بمداد دمي الأحمر. هل الموت قريب منّي؟ هل يرى معاناتي؟ لكن الموت أبى دخول زنزانتي ولم يأبه لاستغاثاتي المتكررة ولا

حتّى لآهاتي وأنّاتي، فالموت تمنيّته منذ ساعة استيقاظي الأولى هنا، ولكن الموت دون آلام هو الأرحم بالنسبة لكل راغبٍ به.

بدأت الجراح تكبر في قلبي وتكثر معها الآهات، الورود السوداء تملئ زنزانتي، تباً لي ما زلت أضيف ياء الملكيّة لها فمكوثي هنا لم يكن طويلاً إلى الآن، تبّاً لحماقتي وتسرّعي في كل شيء، أشحت وجهي عن الورود خشية أن يستحوذ اليأس على قلبي ويحطّم روحي، تمزّق قلبي بين آهٍ وآه ولم أرَ أحداً يقترب منّي، يمارسون سياسة الحرب النفسيّة على روحي الضعيفة، يريدون قتلي هنا بأفكار تتسلل إلى ذاتي كلّ دقيقة. بات العالم في نظري وحوش ضارية وكلّ وحشٍ يريد أن يستفرد بي وحده ويلتهمني.

* * * * * * *

دخل إليّ بعد أسبوع

من الأسر والاضطهاد هنا، وضع لي القليل من الطعام في طبقٍ من القشّ على الأرض أمامي، ابتسم لي ابتسامة أمل، وبثانية واحدة زرع على شفاهي البسمة وغاب عنه أن يسقيها فتكبر أملاً وسعادة، جلس معي ساعات كاملة وهو يكلّمني عن الحياة ورونقها خارجاً. دعاني كي ننزع النير سويّة ونحطم الأغلال ونكسر القيود، نظرت إليه بدمعة رجاء ثم إلى النير القاسي الذي كبّل يداي، تدحرجت دموعي لوحدها فطلبت منه نزع الورود السوداء من الزنزانة المظلمة، التفت يمينه ويساره وخلفه فلم ير شيئاً وقال بنبرة وادعة:

- لا ورود هنا سوداء أو غيرها... أنت في أقسى لحظات يأسك، تلمحين بقع سوداء لا وجود لها.

- من أنت؟

- مالك.

نظرت إليه وانهمر الدمع مدراراً. كانت عيناي تشتاق لرؤيته وها هو ماثلٌ أمامي يمنحني الأمل في أقسى حالات يأسي وضياعي. كم تمنيّت أن ارتمي في حضنه وأبكيه قسوة الأغلال والسجن. سألته:

- أين كنت كلّ هذه المدّة؟

- هل تعرفينني؟ آه صحيح كتبت عنّي في روايتك.

- أخبرتني الكثير عنك وكم حاولت الاتصال بك!

- أنا كلّ يومٍ لدي رقم جديد للأمان والاطمئنان.

- وهل حصل لك مكروه حين انتشرت الرواية؟

- لا... لم يحصل شيء، أنا مالك، لا تخافي عليّ أبداً.

- كم تمنيّت أن أحادثك وأنا في أشدّ الحاجة إلى صديق يواسي جراحاتي.

- لا تخافي فأنا معك، ولن أتخلّى عنك.

أحببت فيه شجاعته وإصراره، وخاصة بعد أن رآني ضعيفة لا أملك دافعٌ يدفعني للأمام، لم أجد الحبّ والأمان في أحدٍ منهم سواه، أيعقل أن يكون هو أماني في بلادٍ ضاعت فيها الأمان؟

مرّت الأيّام ومالك لم ينسني، يتفقدني كلّ صباحٍ ومساء، يستمع إليّ حين أحدثه عن الغراب الذي يأتيني في

كلّ ليلة حالكة الظلمة يبكي الأطلال أرجوه أن يرحل فكفاني عذاباً فوق العذاب. يبتسم مالك ويقول:

- البلبل ذاك صاحب الصوت الشجي هو من يقف ويغرّد على النافذة.
- إذن لم الحياة ضدّي تصوّر لي البلبل على أنّه غراب. لا تمنحني سوى المزيد من الآلام.
- الآلام موضوعة في رأسك ولا وجود لها في واقعك.

هكذا نمضي الوقت في نقاشات عميقة، انتظر الفرح معه ولكن هيهات أن يأتي، كلّ ليلة أكون على موعد مع الحريّة، فتخذلني حريّتي ويخذلني مالك وتبقى القيود فقط من تحبس الدم في أوردتي. يهمس مالك في أذني:

- الحريّة تبدأ منك، انزعي هذا النير من عنقك، حطّمي الأغلال، اكسري القيود.

همسه تجاوز أذني أهرول إلى الجدار القابع خلفي، نظرت إلى الأغلال ثم نظرت إليه وهمست:

- لكنني مظلومة يا مالك، ظلمتني الليالي وجرّعتني العلقم، ألقت على جراحي النازفة المزيد من العذاب، ظلمتني الحياة وظلمتني الأرض التي أنا مقيّدة عليها الآن.

حاولتُ الوقوف على قدمي فسقطت على الأرض أبكي دمعاً ودماً، أبكي ورداً أسودَ وأسى.

عاد ليشجعني على تكسيرها والخروج من الأسر مرفوعة الرأس كما وطن، فوطن ماتت ولكن لموتها قصّة

ترفع الرأس، كلانا ميّتان ولكن لموتي حكاية تبكي القلب وتدميه. لمست في عينيه ضعفاً لم أعهده منه من قبل، تلك العينان السوداوان كانتا دائماً تقدحان بالوهج، ما الذي غيّره؟ عيناه تحدّثني عن الشجاعة والكبرياء فيما لسانه يحدّثني عن أوامر أتته بإعدامي قريباً في ساحة أخرى لا تشبه الساحة التي تخافها وطن وتفزعها حين الاقتراب منها. لمست في قلبه فؤاداً محطّماً. حاول تضميد جراحي النازفة لكنني رفضت خوفاً على ذاتي منه وهو الأمان. دعاني لتأمّل شروق الشمس في السماء، لكنني لم أستطع بسبب النير المتحكّم في عنقي، نظرت إلى الأرض فرأيتها قبراً قد فتحته لي، صرخ عالياً في وجهي ولأوّل مرة يصرخ فيها يدعوني لأنتصر عليها بدل البكاء والنحيب. أمسكني من كتفي وهزّني بعنف قائلاً:

- استمعي إلى العصافير والبلابل، اقتلي اليأس في قلبك وازرعي الأمل. ما أشقاك! وما أتعسك! لماذا أنت كذلك؟ لماذا لا تزرعين الورود في حديقة اليأس وتداومين على سقايتها كي تنمو فتهبك ثمار الحريّة؟ لماذا لا تبنين جسر الأمل فوق محيطات اليأس وتسيرين عليها بثقة وفرح فهو دربك المنير إلى الحريّة الخالدة؟ كلّ الدروب قد فتحت أمامك، ولكن يلزمك لتمرّي عليها إرادة قويّة وعزيمة ثابتة كي تنتصري.

كلّ المحاولات لم تجد معي نفعاً، ربّما اليأس قد سبقه إليّ وأقنعني بالجلوس في أرض الزنزانة المظلمة، محرّم عليّ رفع رأسي عالياً. فالسماء لم تخلق لأمثالي.

لم أعرف كم من الليالي مرّت وأنا هنا، لا ألمح سوى مالك، يطمئنّ عليّ بالليل والنهار، يدعوني للهروب من هنا

دون ملل أو كلل، وكأنه أعلنني قضيّته الأولى وواجب عليه حمايتي، هل الهروب من داعش بالأمر اليسير؟ كنت بعيدة عنهم ولم أنجُ منهم، فكيف أنجو وأنا في معقلهم مكبّلة بأصفادهم؟ تهديداتهم بالقتل ليل نهار، يمارسون حربهم النفسية والجسديّة بأتعس الطرق وأشقاها، وأنا ما زلت مقيّدة بقيود آثمة لا تعرف الرحمة.

* * * * * *

دخل زنزانتي دون

أن ينبس ببنت شفة، فهمت نظراته وارتسمت على شفاهي ابتسامة شاحبة، ربّما آن الأوان لنزع الرأس عن الجسد، جلس بجانبي يمسح على شعري ويطمئنني بأمانٍ لا أراه. قلت له دون النظر إلى وجهه:

- غدوت أسيرة قلبٍ اكتوى بنار الحياة.

مدّ يده ببطء ومسح دموعي التي كادت أن تحرقني وتحرق أحلامي ثم قال:

- ما زلت معك، أتألّم لألمك وأحزن لأحزانك وأدمع لدمعك، بالأمل ستنيرين سجنك المظلم، سيسطع حيناً ويخبو حيناً آخر، ولكنه أبداً لن يموت.

- منذ الصغر وأنا أصل إلى ما أريد، ولكن بعد فوات الأوان، أصل وأنا منهكة لذلك تتلاشى فرحتي وربّما لا تولد من الأساس، أريد أن أصل الآن لأستريح... لأستريح فقط.

- سترتاحين أعدك بذلك، ولكن يلزمك الكثير من القوّة لتنهضي وتكملي المسير.

وخرج وهو يتعهّد لي بأنّ خروجي من هنا إلى الحريّة بات قريبٌ جدّاً. عاد بعد مدّة قصيرة، ربّما ساعة أو أكثر، لم أسأله عن الوقت فلا حاجة لي به، دعاني لنرسم على الجدار دروباً مستقيمة طويلة تفضي إلى دمشق الحبيبة.

- ولكن يا مالك يداي مقيّدتان.

دعاني لنغنّي مع البلبل فيعلو صوتي فرحاً وطرباً وألّا آبه للحديد.

- ما زلتُ أئِن من هول جراحاتي النازفة، فصوتي الآن آلامٌ لا يستطيع إنسانٌ الإصغاء لها.

زفر قليلاً وربّما ملّ مني وقال بنبرته الهادئة التي اعتدتها منه:

- الحريّة يا سنا لا توهب وإنّما تؤخذ عنوة، هبّي في وجوه من كبّلوك بالأغلال. كفاك يأساً وحزناً، حتّى الأرض التي تجلسين عليها سئمت منك ومن دمعك السخي.

ها هو البلبل ما زال واقفاً على نافذتك يحدّثك عن الدفء والحنان خارج أسوار الزنزانة.

- مالك؟

- نعم.

- طالما تملك النفوذ والشجاعة. لمَ لم تحرر وطن من براثنهم؟ لكانت الآن حيّة ترزق.

- وطن مطلوبة للجميع هنا، وحدها من عرفت أسرار دولة داعش، ووحدها من تعلّمت فنون القتال جميعها. إن ساعدتها على الرحيل سيقتلونها بأبشع الطرق وحشية. فلتمت وهي بطلة بدلاً من قتلهم لها.

ناشدني أن أعاود الوقوف على قدميّ وإن كانتا مقيّدتين كي أواجه نقاط ضعفي ومن ثم أواجه العالم من جديد، سمعت كلامه أخيراً، وهذه المرّة اخترق سهمه الفؤاد فبدأتُ

بترديده كالببغاء خلفه، لم أصمّ أذنيّ ككلّ مرّة، بل حاولت النهوض، كنت أقف وأقع، نظرت إليه لعلّه يساعدني لكنه كان واقفاً مكتوف اليدين ينظر إلى ضعفي نظرة تشجيع وامتنان. نظرت إلى نور القمر تلك الليلة رأيته يرسل شعاعه إلى غرفتي فلم يبخل عليّ تلك اللحظة.

وقفتُ أخيراً غير مبالية بالأغلال وهي تقيّد كاحلي وتدميهما، أمّا هو فقد أخرج بضعة مفاتيح من جيبه وفتح الأقفال جميعها واستطاع تحريري من نير العبوديّة، ولأوّل مرّة تراءت لي الزنزانة فارغة من الورد الأسود. ها هو البلبل عاد إلى نافذتي يغرّد أعذب الألحان. اللعنة على ياء الملكيّة في كلامي، فهي من الآن لم تعد ملكي ولن تبقى لي، أمسك بيدي وقال:

- درب الحريّة طويلٌ وشاق، وعلينا أن نمشيه خطوة تلو الأخرى.

لم أكن بائسة الليلة كما اعتاد رؤيتي، بل وجدني ارسم ابتسامة على شفتي سرعان ما قابلها بابتسامة النسور.

خرجنا معاً من الزنزانة الرديئة، يدانا متشابكتان، لم أخف ما دام يمسك يدي. خرجت أخيراً من الظلام إلى النور، من الأسر إلى الحريّة، من البرد إلى الدفء. رأيت القمر في ظلمة السماء يعانق نجومه في انتصار. كان النسيم يلاعبني والأشجار تراقصني والبلابل تغرّد لي أروع الألحان وأعذبها. الطبيعة كلّها معي و تقف في صفي، نظرت إلى الكون الواسع بسرور لا متناهي ومن ثم نظرت إلى يده وهي تعانق راحة يدي وركضنا بسرعة جنونيّة، فلنهرب من هنا قبل أن يشعروا بوجودنا.

كنّا نركض ونركض، نتعثّر ونقف، نسقط ونرتاح، وقلبي يدق بسرعة كبيرة وأنفاس صدري تعلو وتهبط حتى كاد أن ينقطع نفسي. لم أعرف كم لبثنا في الركض بهذه السرعة فالشمس قد بدأت تلوح خيوطها في الآفاق ويجب علينا التخفّي قبل أن يدركوا أمر هروبنا.

وصلنا إلى بيتٍ صغير في زقاق ضيّق بالكاد يعرف المار من هناك أن في هذا الزقاق بيتاً صغيراً. دخلنا إليه وارتمينا على الأرضيّة نرتاح وننظر إلى بعضنا بخوفٍ فهروبنا لم يكتمل بعد، حانت اللحظة الحاسمة في القصة وربّما نعتقل في نهايتها، فلنكن حذرين عند كلّ خطوة، فخطوة واحدة قد تدفعنا إلى حياة جديدة وأخرى قد تدفعنا إلى الهاوية، وقف وفتح الخزانة الخشبية المتوضّعة في زاوية الغرفة وأخرج منها عباءة ونقاب طالباً مني ارتدائهما، فعلتُ دون الاعتراض

فأنا أدرك أن ما يفعله مالك لحمايتي. وقبل أن ننطلق استوقفته لأسأله أسئلة تتردد في ذهني وتشوّهه:

- مالك.

التفت إليّ وقال:

- نعم.

- طالما المفاتيح في جيبك، لمَ لم تحررني منذ اليوم الأوّل؟ لماذا تركتني هناك كلّ تلك المدّة أتجرع الألم والحلّ عندك؟

- سر النجاح يا سنا أن تؤمني بنفسك، حينها لا أحد يستطيع إسقاطك أرضاً، نظرتك لذاتك إن كنت ترينها قوية أو ضعيفة هي التي تحدد مصيرك، أردت منك طلب

الحريّة كي تكوني مقتنعة بفكرةِ الهرب، أن تكوني شجاعة فلا تواجهنا أيّة مخاطر.

- كم لبثت هناك؟
- خمسون يوماً.
- مالك... من أنت؟
- ستعرفين ذلك قريباً... هيّا بنا ... لنسير الآن قبل استيقاظ العامة.

أمسك بيدي وطلب منّي الصمت في جميع الأحوال، في بادئ الأمر أحسست بخوفٍ قد شلّ ركبتي، ولكن بعد ذلك سرت طمأنينة في جسدني أشعرتني أنّ الله معنا في دربنا نحو النجاة. شعرت به يراقبنا في الهروب من بلاد لا تعرف الأمان، يمهّد لنا طريق السلامة، أحسست بيد مالك تلامس فؤادي ودقّ قلبي للمرّة الأولى، فهل يا ترى أحببته حقّاً؟ أم أن

القدر هو من رماه هنا ليكون سنداً فقط؟ مشينا كثيراً، ربّما قرابة الستّ ساعات دون التوقّف ودون النطق بحرفٍ واحد، حتّى وصلنا إلى أحراج كثيفة مغلّفة بأشواك يابسة. مشينا قرابة النصف ساعة فيها امتلأنا بالجروح بسبب الأشواك الكثيفة، كان مالك يبعدهم عنّي بيده فتنزف دماً دون التفوّه بحرفٍ واحد، كم أنت عظيمٌ يا رجل! ليتني أستطيع شكرك إن خرجنا من دائرة الشوك هذه أحياء. كان لزاماً عليّ الصمت وعدم الإتيان بحرف واحد كي لا يشعر بوجودنا هنا كائنٌ من كان، فلا أحد سيدرك أنّ في أحراج الشوك هذه هناك من يسير بها دون الصراخ لجراحهم النافرة. تبّاً للمصادفة قبل خمسين يوماً تراءت لي الورود سعادة كبيرة وحلماً طالما حلمت بها لكنّها كانت تحتوي ألماً وعذاباً انتهى لتوّه، كانت الورود عبارة عن سعادة مغلّفة بالآلام، واليوم هذه الأشواك هي عبّارة عن آلام مغلّفة بالنجاة والأمان، لا نصدّق كل ما

نراه، فالورد الذي هناك جرّني إلى الشوك الذي هنا، وهذا الشوك سيجرّني إلى ورود دمشق الفيحاء.

وفجأة وجدت نفسي في النصف الآخر من العالم، النصف الذي كنت أتمنّاه وأنا هناك. ترك يدي مالك ونظر إليّ قائلاً:

- الآن أصبحتِ في أمان.

- وماذا عن الجميع هناك، هل سيبقون يتمنّون ساعة أمان واحدة، هناك ظلماً كبيراً تحيى به مدينة بأكملها، تمنيت يا صديقي لو أسدل ستار العدالة والرأفة على ذاك المكان المظلم. شكرا لك لأنك وضعت لي مفاهيم جديدة للحياة وساعدتني على نزع القيود وتحطيم اليأس.

- لها يوما كباقي المدن ستعود إلى حضن الوطن قريباً وستنعم بالأمان الخالد.

- مالك... من أنت؟
- ستعرفين ذلك قريباً.

سار أمامي هادئاً شامخاً كالنسر، وبخطواتٍ سريعة كما عهدته منذ التقينا أوّل مرّة أو كما أخبرتني عنه وطن، لم يخبرني شيئاً عنها ولم يحدّثني عن مشاعر الانتقام التي كانت تجتاحها، ربّما أراد إقفال صفحة من الماضي، فبعض الصفحات المغلقة لا يجوز العبث بها. تجاوزنا بضع تلال صغيرة ووصلنا إلى أكبرها حجماً حيث كانت الجموع الغفيرة بانتظارنا وكأنّها على موعدٍ معنا، قيادات ذات رتبٍ عالية، قنوات تلفزيونيّة، مراسلون ومراسلات يختبئون تحت ظلال الأشجار هرباً من أشعة شمسٍ حارقة. كان الجيش يحتفي لمرآنا ومالك ما زال يسير نحوهم بخطى ثابتة، نحو هدفٍ معيّن لا أراه أنا ويراه مالك شيئاً عظيماً، وأنا كالنعجة أسير

خلفه، أتعثّر بالحجارة وعيناي على هذه الجموع من أين جاءت؟ ولمَ جميعها هنا وأمّي، آه يا أمّي أين أنت؟ لمَ لست معهم؟ لماذا لم تأتِ كي تحتفلي بوحيدتك وتعانقيها؟ آه يا أمّي لكم اشتقت إلى عناقك وتقبيل يديك رغماً عنك فأنت تكرهين ذلك وأنا أفعلها عمداً كلّما أغضبتك.

كدتُ أقع بسبب العباءة الطويلة فأمسكت بمالك على الفور ورفعت عينيي لتقعان على شخصٍ لا أريده هنا، ولا أرغب بإفساد سعادتي، يسار ما الذي جاء بك إلى هنا؟ واقفٌ يرتدي ثياب الحمل الوديع، يعيش في داخله ذئب مفترس، ألا تخشى الوشاية بك؟ نظراته كما عهدتها حادّة كصقرٍ يتأهّب لاصطياد فريسة، لست فريستك يا يسار ولن أرضى بهذا الدور مرّة أخرى. من أنت يا يسار؟ وماذا تفعل هنا؟ أقلّب ناظري بين يسار ومالك ما أبعد الشبه بينهما، ولكن من هما؟

ومن يكونان؟ وما هي مهمّتهما؟ إنّي أخافهما معاً، فهما بالنسبة لي ظلامٌ لا أرى داخلهما مطلقاً.

ليتني أنا كاتبة هذا الفصل من الرواية كي أهرب من هكذا موقفٍ لا أريده، ما أقسى الكاتب حين يخطّ الشخصيات بقلم يرتجف لعذابهم! كم أتمنّى ألا أكون البطلة في هذه الرواية التي طالت فصولها ولمّا تنته إلى الآن. سرقني من شرودي مالك إذ وقف مقابل القائد يلقي التحية العسكرية بصوتٍ أرعب الطيور فطارت ، ضاقت بها الأرض فاتسعت لها السماء، ارتجف قلبي لسماع صوته العسكري مقدّماً نفسه لقائده. صمت كلّ شيء في الوجود إلّا ضجيج عقلي الصارخ بأفكار مشوّشة. بعد أداء تحيّة مالك مثلتُ أمام القائد ولكن لم أستطع تقليد مالك في تحيّته فاكتفيت بالانحناء قليلاً بقلب يرتجف خوفاً. هنّأني القائد على شجاعتي وإصراري في النجاة منهم، وهنّأ مالك على حمايتي وعلى تأدية مهمّته بنجاح.

نظرت إلى مالك ويده بيد القائد يتحدّث بثقة فعرفت حينها من يكون مالك؟ مالك منّا وليس منهم، فهنيئاً له بيننا وها هي دمشق تحتفل باستعادة ابنها البار مجدّداً.

في ذات الوقت الذي كان الجميع يحتفل بانتصارنا كانت طائراتنا تهاجم معاقل داعش وتدكّ حصونهم. مع كلّ انفجارٍ يهوى قلبي منّي. ربّما أرادوا استعادت المدينة بناء على أخبارٍ نقلها مالك إلى قيادته. ما أسرع مالك في نقل الأخبار؟

كسر خوفي يسار بخوفٍ أكبر حين لمحته واقفاً أمامي قال بعد أن تأمّلني لثوانٍ:

- مبارك عليك الانتصار.
- أين أمي؟ لماذا لم تأت ؟
- سآخذك إليها الآن.

- ومن قال لك بأنني سأرحل معك؟
- لا أحد... ولكنك زوجتي ولن يجرؤ أحد على المس بخصوصية منزلنا وعلاقتنا.
- ألا تخاف مني؟
- لا... فأمك ماكثة لدي وكلمة واحدة تقتلها.

لم يسمعنا أحد فالكل مشغول بالاحتفالات وكأن المدن كلّها قد عادت إلينا. ومالك قد شغل نفسه مع القائد وربّما نسي أنني كنت معه قبل دقائق.

أمسك بيدي واستغلّ غياب العالم عنّي وخاصة بعد أن بدأ الناس بالعودة إلى ديارهم، مشيت معه لأجل والدتي فقط، أردت رؤيتها وسأقف في وجهه رغماً عنه، سنرحل عنه وسأخبر الجميع عنه، فيسار لن يكون واحداً منا بتاتاً، من باع وطنه لا يصلح أن يعيش في قلب الوطن، كيف فعلها؟

وكيف استطاع كسر قلب وطنه وهو يتآمر عليه وعلى شعبه؟ أركبني السيّارة ذاتها ودارت الأيام دورتها لأستذكر ريف دمشق ووروده، فنظرت إليه أحاول سؤاله مرّة أخرى عن والدتي، سارت السيّارة بسرعة كبيرة فصمت كي لا أثير غضبه ويأخذني في اتجاهٍ آخر، لوهلة أحسست بغبائي وحماقتي، لماذا ركبت مع قاتلي؟ ولماذا لم أرفض؟ كنت في موقفٍ لو رفضت بصوتٍ عالٍ لوقف الجميع في صفي. ولكن الآن... من سيقف في صفّي إن قتلني هذا؟ تبا لطيشي...واللعنة على نفسي حين قبلت ذلك مطأطأة الرأس وكأنني ما زلت أخافه، ربّما خوفي على والدتي هو ما دفعني لذلك. كان الطريق مختصراً للغاية، أوصلني إلى مقبرة الحيّ ودعاني لأترجّل من السيّارة، فعلت ويدي على قلبي واثقة أنّه جاء بي إلى هنا لقتلي بين القبور. اقترب منّي وأمسك يدي قائلاً لي:

- البقاء لله.

نظرت إلى احمرار عينيه بصدمة ذهبت بعقلي.

- ماذا تقصد:

قطب حاجبيه وأردف:

- كانت خائفة عليك كثيراً. تبكي ليل نهار، أصابتها وعكة صحيّة أودت بحياتها.

كلماته كانت ثقيلة عليّ كثقل الجبال على المهموم. لم أستوعب في بادئ الأمر ما يتفوّه به، أعتقد أنه يهزأ بي، ألم تكفني عذابات الخمسين يوماً ليزيدها عليّ هذا المعتوه.

أخبرته باستحالة تصديقه، فأقسم لي إنّها الحقيقة بعينها. زاغ بصري وبدأت بالنحيب كالمجنونة، طلبت منه أن يدلّني على قبرها لعلي أقترب منها وهي البعيدة عنّي، في لحظة لم أخش يسار ولم أفكّر به سوءاً لأن تفكيري كلّه منصبٌّ على من وهبتني عمراً فوهبتها لحداً.

تمّ إيصالي إلى قبرها فارتميت عليه، أبكي عمري وعمرها، حياتي وحياتها، أبكي ندماً تذمّري كل لحظة خوفٍ وقلق صدرت منها، بكيت نادمة ما فعلته معها وهي التي انتظرتني كما انتظرت والدي من قبلي، أعياها الانتظار فقتلها دون أن أراها وكأنّها تنتقم منّي لما فعلته معها، لن أسامح نفسي ما حييت، ولن أسامح يسار أبداً، بكيتها حتّى غفت عيني على قبرها. فتحت عيني لأرى جسدي يقف ببرودٍ مقابل قبر جديد. همست لها:

- أيمكنني أن أمدد جسدي المنهك هنا بجانبك أمّي... فالوجع في صدري فاق أوجاع العالم، الحياة ضاقت بي كثيراً ولا ملجأ منها سوى صدرك الحاني، أودّ البكاء كي أستريح من ألم أثقل كاهلي ولكنّك يا والدتي بعيدة عني وقريبة في الوقت ذاته، كالسجينة أنا داخل زنزانة الوطن لا أستطيع لمس حاراته وياسمينه وكذلك الأمر بالنسبة لنا، ليتني أستطيع لمسك والاتكاء على كتفك. عودي لساعة واحدة وعاتبيني على غيابي عنك، اصرخي في وجهي واضربيني إن أردت... لن أشتكي ولن أبكي، لن أصرخ ولن أهرب، ليتني استمعت إلى صوت فؤادك وهو يطلب مني ألّا أغادر المنزل لما كنتِ أنت هنا الآن وما صرت أنا على ما صرت عليه. والآن إلى من أهرب وكل الطرق سدّت في وجهي حتّى صدرك ما عاد لي، أنت ميتة في الأسفل لوحدك وأنا ميتة في الأعلى معه. وحدي مع قاتلي يا والدتي.

كنت أتمنى مالك بجواري لا يسار الشبح الجاثم خلفي (كتلة الجليد والبرودة) لم أعرف كم من الوقت بقيت هناك أنتحب فراق غاليتي؟ ولكن عرفت عدد المرّات التي أمسك بيدي كي أرحل معه، كنت أسرق يدي من يده عنوة. أريد البقاء بجوارها حتى تأتيني وتخبرني بأنها قد سامحتني، يعاود إمساك يدي فأسحبها وكأننا نلعب معاً، ولكن نظراتنا يفهمها الجميع بأننا ألدّ الأعداء. كرهي له كبر بعد وفاة والدتي ومع ذلك لن يتركني أنعم بسلام سيسلّمني مرّة أخرى لهم، ومالك لن يكون هناك لينقذني، سأموت قبل أن يصل الخبر لمالك، لم ييأس من المحاولات المتكررة فعاد وأمسك بيدي بقوّة وسحبها بسرعة فوقفت حتّى كدت أقع على قبرٍ آخر فأمسك بي إلى أن توازنت قدماي، أمسك بيدي وجرّني وراءه. كان يمشي بخطوات سريعة وأنا ألهث خلفه طالبة منه الرحمة والرأفة بي، لم أجرؤ على ذلك بصوتٍ عالٍ، طلبت جزءاً من

حقوقي في قلبي الهش، فلم يسمعني ودليل ذلك يده الكبيرة التي كانت تقسو على يدي الصغيرة.

أركبني سيّارته رغماً عني، بدأت أشعر بالاختناق كلّما ركبت هذه السيّارة، وكأنها سجنٌ صغير قد سلبت فيه جميع حقوقي، ركب بجواري وشق أحياء دمشق وشوارعها العريضة. رأيتُ دمشق ترتدي الحداد على والدتي، تبكيها معي وتناديني كي أعانقها، ليتني كنت فيها الآن وتحت أرضها أعانق والدتي نهاراً وفي الليل تعانقني دمشق وأزقّتها. لم أعترض على وجودي معه لأن المصيبة كانت أكبر بالنسبة لي ومع أنني أشعر بالأغلال وقد وضعت حول معصميّ إلا أن عبراتي كانت ما زالت تنسكب على والدتي. لم ينبس ببنت شفة وكذلك أنا، ظلّ كجبلٍ جليدي لا ينصهر مهما أوقدوا النار تحته، أما أنا كنت أبكي صمتاً وقهراً وعمراً قادماً، أبكي قدراً

غامضاً ورواية مجهولة النهاية، ليت كاتبي يرأف بحالي والقلم يرحم عبراتي الضعيفة.

أوصلني إلى بيته وأغلق الباب بالمفتاح، لا أعرف مكانه ولا أعرف لماذا اختطف هاتفي مني، ولكن عرفت بأن نهاية الرواية ستكون هنا، في البيت الجليدي، سيهديني جراح فوق جراحي ، وسيصبّ على كاهلي المتعب آلاماً تفوق الوصف، ستفيق وطن من موتتها لتبكي عذابي وتبتهل لحالي. أأستسلم؟ أم أقاوم؟ وفي الحالتين سأموت. لم يعطني أياماً لألبس السواد وأبكي أمّي، ولم يمنحني مساحات لتأمّل حياتي كيف ستغدو؟

انقطعت أخبار مالك عنّي واستغل يسار ضعفي وألمي على فقدان والدتي وعلى انتصاري المجروح، فقد خرجت من تلك المعركة بجسدٍ مرهق ونفسٍ لا تشتهي شيئاً، أقفل الأبواب والنوافذ ومنعني من كلّ شيء حتّى من نفسي، بدأ يمارس

ساديته على ضعفي وقلّة حيلتي، فاستسلمتُ له كما استسلمتْ وطن من قبلي، وسلّمته كلّ شيء بإرادة ضعيفة وكأنني قد مللت من الحياة وما فيها، قلت له من قبل (افعل بي ما تشاء... فبعد رحيل والدتي لم أعد شخصاً يبالي) سمع كلامي فزادت جرائمه بحقّي وسكتّ عن ذلك لأنّ لا حول لي ولا قوّة، ولو أن مالك هنا ما كان ليقبل بخنوعي، سيعلنها ثورة حتّى النصر، ولكنني ضعيفة من دونك يا مالك، فسجّاني هنا يمارس جرائمه تحت ضوء القانون ولا أحد يردعه، أنا هنا الحلقة الأضعف في الحكاية، هنا القاتل والمقتول في غرفةٍ واحدة، هو القاضي والسجّان والجلّاد ووحدي الضحيّة وليس لديّ محامٍ يدافع عني ويشهد أمام الجميع بأنني مقتولة ولكن لم يحن قتلي بعد. استعمل معي كلّ أساليب الوحشيّة كي أخضع لطلبه ولم أخضع فحاول قتلي مرّات عديدة وفي كلّ مرة يفشل فتخونه يداه وتعرقله قدماه. كان يخشى نظراتي حين

يحاول فعلها فيهرول خارج الغرفة صامتاً لا يلوي على شيء وأنا المقيّدة ها هنا بجحيم عذاباتٍ لا دخل لي بها.

أقف في غرفتي الصغيرة أتمنّى زوال الألم كي أنعم بسعادة لا أستحقّها، ربّما لن تزورني بتاتاً، وربما ستأتيني في وقتٍ لا أشتهي شيئاً، سيان عندي إن غابت أو حضرت، لا سبيل للبقاء هنا ولا سبيل للخروج منها، تباً لدائرة الوسط وما تفعله بنا من حيرة تطول وتطول حتى تأخذ معها عافيتنا، وبعدها نختار الدرب المؤلم ولكن ربّما سيكون أقلّهم ألماً.

روحي حزينة كنجمة صغيرة في أعالي السماء تلاشى ضوؤها ولم يبال أحد بها ولم يرها أحد.

أين أنت يا مالك؟ هل تعرف ما يحصل لي؟ ربّما كان على علم بوجودي هنا وبوحشيّة يسار، ربّما أرادني أن أكون قوية كي أنقذ نفسي بنفسي، فكلّهم جدران مائلة ونفسي هي

السند، هي من تبقى معي في النهاية في حين تخلّى عني الجميع.

كيف استطاع يسار إيهام القيادة والوصول إلى المراكز العليا وهو لا ينتم إليها، كم أنت ذئب مخادع وثعلب ماكر، حاولت التجسس عليه مثلما يفعلها معي دائماً، لكنّ عينيه كالنسر في كلّ اتجاه. فشلت كلّ محاولاتي واحتلّ اليأس جزءاً كبيراً من قلبي ولم أعد أرى بارقة أمل واحدة في نجاتي من هنا. عدت انتحب مالك وهو الأمان في الوجود في مكان لم يخلق للأمان.

مرّت الأيام بطيئة علي سريعة على يسار، بطشه كان في ازدياد إذ زاد تنكيله واستبداده، زاد قمعه وغضبه وكأنّ شيئاً ما قد حدث لدولته المزعومة، وكأنّه يترقّب أمراً سيحدث وستقترب ساعة الخطر فتقضي عليه.

كان دائم التفكير والشرود وكلّما فتح التلفاز ليشاهد خبراً واحداً كان يبدأ بضربي وكأنه يهرب من جحيمٍ لا يريده وكأنني المسؤولة عن كلّ ما يحدث. بدأت بغيابه كتابة روايتي الجديدة ((خمسون يوماً هناك)) كنت أخاف من افتضاح أمري سيقتلني حينها ولن ينجو مالك من شرّه، مالك استطاع النجاة من الرواية الأولى بمكرٍ وخديعة لا أعرفها، بذكائه استطاع إكمال مهمّته دون أن يشعر بذلك أحد. ولكن أخشى عليه اليوم من شر قد يقترب منه بسببي.

خبأتُ الدفتر تحت السرير وكلّما خرج من البيت أحمل الدفتر وأكتب ما حدث لي هناك، أردت أن يعرف الجميع عنهم أكثر فسأكتب ما يمليه عليّ قلبي قبل ضميري ولن أفسح أيّ فرصة لجلّادي ليقرأه جلّادي لأنني سأنهي الرواية عنه، ستكون رواية ناقصة النهاية، لن أكملها فربّما سأموت قبل إتمامها، سيكملها غيري، من عاش هناك وسمع ورأى

وتألم، سيخبر الجميع النهاية. وبالفعل كنت كلّ يومٍ أكتب منها صفحتين فقط وأخبّئها قبل أن يعود، وبذلك لم يعرف بأمرها ولم يعرف بأنني وصلت إلى اليوم هذا، اليوم الذي بدأت أكتب عنه إذ منحت قلبي جميع مشاعر الألم كي يسطّر جراحي وهو يرتجف.

لم تنته الرواية بعد فذات ليلة كانونية قارصة البرودة لم يعد يسار، كانت الكهرباء قد قطعت منذ قرابة الساعة والنصف، كنت وحيدة جالسة على ضوء شمعة صغيرة، أذوب احتراقاً مثلها، متكوّرة على ذاتي في حين الرياح تلعب بالنوافذ فتفتحهم ثم تعاود إغلاقهم بقوّة. يهبط قلبي خائفاً ولا طاقة لي بإحكام إغلاقه، لا أدري لماذا لم يقم يسار بإغلاقهم كعادته عند الخروج. صفير الرياح مزعج للغاية وكأنني على موعدٍ مع جريمة سترتكب الآن ويسار لم يعد إلى البيت بعد. هاجت الرياح أكثر وبدأت قطرات المطر تنسكب بغزارة تضرب

النوافذ بقوّة وأنا أرتجف من البرد والخوف معاً. هذه الليلة ليست ككل ليلة ففيها كثرت الذكريات في كلّ شيء وازداد الخوف في قلب لم يعد يبالي بشيء، تمنيّت أن تقتلع الرياح الباب كي أهرب منها إلى مكانٍ أكثر أمناً من هذا المكان، ها هو جلّادي غاب الليلة كلّها وهذا ما لم أعتدهُ منه، أيعقل أن يكون قد قُتل؟ فجلّاد وطن حين غاب لم يعد بتاتاً، في حين كانت تنتظره كان هو راقدٌ فوق التراب تبحث روحه عن قبر يضم رفات جسده القذر. ولكن إن مات سأموت بعده فلا أحد يعلم بوجودي هنا.

بعد ساعات كثيرة من التفكير المتواصل تناهى إلى سمعي ضجيج عالٍ وضربٍ عنيف على الباب الرئيسي، رجعت بسرعة إلى الحائط فارتطمت به، بالتأكيد عصابته جاءت لتقضي عليّ، هذه المرّة ستكون النهاية، لا ورود هنا ولا طبيعة، هنا الموت نهاية الأسر والعذاب. تحسستُ رقبتي

أطمأنّ عليها وأنا أبتلع لعابي بصعوبة بالغة، هدأت الرياح والغضب القادم لم يهدأ، تحطّم الباب أخيراً ودخلوا يبحثون عنّي بأعينهم، ما زلتُ واقفة بعينين امتلأتا بالدموع شكراً لخالقها فوحده لن يضيّعني. ركض إليّ وعانقني بقوّة حتى كاد أن يكسر أضلاعي.

أخذني في أحضانه أبكي ألماً وقهراً وهو يحاول منحي الأمان بأسرع الوسائل الممكنة، نظرت إليه وسألته:

- أين يسار؟
- تم اعتقاله اليوم... فبعد اختفائك، بدأنا بالبحث عنك، كانت الشبهات تحوم حوله، راقبناه كثيراً حتى علمنا أنّك مسجونة في محميّته وتتعذّبين بيديه.

ابتسم لي كعادته مما جعلني أمسح عبراتي وأبادله ذات الابتسامة فسأل:

- هل عرفتي من أكون؟

ابتسمت ابتسامة أوسع وأجبته:

- مالك القلب والروح.

*   *   *   *   *   *

جاءتني عروضٌ شتّى لمنتجين يعرضون عليّ إنشاء مسلسل تلفزيوني يعرض فيه قصّة حياتي وخاصة بعد أن نشرت روايتي (خمسون يوماً هنا) صمتّ حينها ألماً ونظرات مالك لي تشجعني على قبول العرض. كنت أعلم من البداية أن آلامي ستتحول يوماً إلى مسلسل يعرضها التلفاز في أوقاتٍ يتأفف منها البعض والبعض الآخر يراه مملاً، وأما البعض فسيتمنى أحداثاً أخرى ونهاية غير متوقّعة.

* * * * * *

وقفتُ ومالك أمام قبر والدتي، يدي تعانق راحة يده ويده الأخرى تحمل صغيرتنا (وطن)... أخبرتها عن خوفي الدائم عليها. فلقد علمت بعد فوات الأوان بأن مخاوفي الدائمة عليها ما هي إلا نتيجة كوني ((أم)). أخبرتها عن انتصاراتنا الكثيرة والتي استعدنا فيها سوريتنا الحبيبة من براثن الطامعين، لكم تمنيت هذه اللحظات والاحتفالات تعم كل المدن سعيدة بهذا الحدث العظيم الذي سيكتب التاريخ، فنحن من انتصرنا ولن يكتب التاريخ سوانا. أخبرتها عن شهرتي التي أوصلتني إلى أعلى المراتب في كلّ مكان وعن زوجي مالك حبيبي وأماني من كلّ خوف.

* * * * * *

مات الأبطال الحقيقيون والمسلسل ما زال يعرض إلى يومنا هذا على القنوات التلفزيونية بأبطاله الوهميّون والذين حاولوا قدر الإمكان التمثيل بأفضل أداء حتى يبدو المشهد كالحقيقة فعلاً. ولكن مهما حاولت الروايات أن تكتب عن فظاعة ما حدث هناك لن توفي المجازر حقّها، مهما حاول المبدعون أن يبهروا الجمهور بأدائهم لن يشعر أحد بعذاب من رحلوا. نحن نتعاطف مع الممثل الذي قام بأروع أداء متناسين حقيقة بشعة وراء هذه المشاهد.

كانت إذاً سنا على حق وكذلك وطن، لن تشعر بمشاعر من كانوا هناك حتى لو قرأت الرواية ألف مرة، ولن تصدّق أنّ هناك أناس بمنتهى الوحشية، يحللون القتل والعذاب بهمجية عنصرية.

* * * * * *

استعدنا الوطن وشهدت المدن جميعها انتصارات وأفراح كبرى، ولكن لم نستعد من ماتوا دفاعاً عنها، ولم نستعد من حلموا يوماً باستعادتها، عاد الوطن على أشلاء الكثير وعلى أحزان الكثير.

* * * * * *

تمّت

٢٠١٩/٨/٧

من رحم الألم يولد الإبداع